

# الصفحة الخامسة والثلاثون

## رواية



عبدالله باعزي

## الصفحة الخامسة والثلاثون

رواية

عبد الله باعزي

إهداء :

إلى ..

أحمد، ذو النفس الأبية، صديق الطفولة والشباب، الذي يبحث  
عن الموسيقى في كل ما يحيط به.. رغم التعب وانصرام  
السنين.

علي، المغامر الذي يعشق الفرح والكفاح، ويقفز فوق التجارب  
الصعبة مثل شعاع مارق.

محمد، الدائم الحضور رغم سطوة الغياب.

إبراهيم، الهادئ المسالم.. الذي تقبع ضروب خبرات الحياة  
وراء رزائنه وهدوئه.

رشيد ، عاشق الحرية والحياة ، الرحالة الذي بوسعه التنازل عن أشياء كثيرة مقابل حقه في الترحال.

مبارك، آخر العنقود الذي صار شجرة عنبٍ وارفة، ينبوع الحنان والشجاعة، الباحث في قلب الظلام عن أي شرارة.

يعمّ السكون.. فيصبح للصمت ضجيج مضجر. ومن عمق هذا الضجيج تملأ أصواتك الداخلية فتطرد كل الهدوء المحيط بك بعيداً. ما الجدوى من تلك الرعدة التي تعقب الأصوات المفاجئة؟ لماذا يختزن الجسم كل شيء مادامت الكثير من الأحداث والأشياء غير ذات شأن، ولماذا تظل حيّة متجددة هكذا؟ بهذه القوة وهذه الاستمرارية؟ تعترى الإنسان خواطر متطرفة حيال الخوف، أو حيال الموت بصيغة أكثر وضوحاً ودقة. وإذا كان هذا الإنسان ذا عاطفة هشة، فإنه ينقاد بسرعة إلى معترك الألم.. فيبكي بسبب أحزان لا تخصه، ويستعيد ذكريات لم يعيشها، ثم تخرج من فمه أنغام لم يسمعها من قبل. هناك دائماً في مكان ما داخل هذا العالم الزاخر الذي يوجد في دواخلنا، توجد رغبة عميقة في التخلي الكامل، عندما تستيقظ صباحاً وتجد المرارة في فمك، وتكتشف أن وعيك يُباشِر الاعتراف بوجود هذا الولوج الشيطاني للعيش وفق معايير الكارثة، في المقابل تكفي التفاتة واحدة لإصدار قرار واع بأن ذلك مجرد وحش عاطفي يرتزق من سباتك الذهني، حين تكون في حضيض الإدراك، وتشارك بنصف يقظتك في كل ما يحيط بك مستسلماً لأشد حالات الوهم فتكاً. أما الأشرس من ذلك، فهو عملية مضغ أحداث كئيبة لفترة طويلة، واستعادتها من جديد لسنين متوالية دون توقف. وتبدو الحالة من زاوية النظر هذه خالية من أي نوع من أنواع الإنصاف، إذ في النهاية لا يهم مقدار شعورك بالرفض أو التعب أو الضجر، لأنك في كل الأحوال سواء قبلت بالأمر أم لا، لا بد أن تستيقظ في الوقت

المحدّد وتقوم من مكانك رغماً عنك لتندغم بكل التفاصيل اليومية مهما كانت مقرّفة.. لأن لا أحد يهّمه أمرك، لا لأن اللّطف مفقود في هذا العالم، بل لأن الكلّ، فرداً فرداً، مستنزفون جميعاً حدّ الذهول. كل واحد مشغول هو الآخر بهومومه ومشاغله، والناس عادة لا يتبادلون العون والمودة والمشاركة إلا عند الكوارث، حين تُجبرهم الأحداث القاسية على الانتباه مرغمين بفجائية من رتابة الحياة والانشغالات اليومية. ومع كل هذه الدوخة ينبغي دائماً وكل صباح أن تنتهي إلى إيجاد ركيزة جديدة، تمحو تعبك وتمسح قلقك لتقف، ثم تمضي لمجابهة ما ينتظرك في مُعترك الحياة .

أما هذه الريح الملتهبة الأقرب شهباً بلفح النار، والتي يُصاب البشر بالهياج تحت سطوتها، وينقلبون إلى كائنات تتصرف بطيش ونفاد صبر عندما تفشل كل المحاولات لتخفيفها، أما السائق فيقف أحياناً حيالها مكتوف اليدين، فإذا أُضيفت إليها عربة الرّكاب فإنه يفعل أيّ شيء لكي لا تتفلت أعصابه. ماذا يستطيع فعله حيال هذا الجحيم؟ أسئلة يجد صعوبة كبيرة في تحمل الأصدقاء التي تتركها في نفسه كل صباح بعد الاستيقاظ، لأنه سيضطر لأن يقود الحافلة من الصباح إلى المساء متحملاً الهجير وشغب الناس وثقل جسده وسط سديم عارم من الحرارة. إنه القيظ.. هذه ليست حرارة عادية. فإذا كان من نصيبك أن تزور هذه المدينة أواخر شهر غشت، وبالتحديد في الأيام العشرة الأخيرة، فلا بد أن تستعد لأن تتحمل ردود فعل جسديك حين ينزّ منه العرق، ويسيل مثل جداول صغيرة تجعل

ملا بسك تلتصق بجلدك فتصيران معاً لُحمة واحدة. كما أن الهواء يصبح ثقيلًا وحرًا ومغبرًا. ستتتنفس الهجير مثل جملٍ يذرع البيداء، الفرق الوحيد بينكما، أنك تتنفس متهالك الجسد مطأطأ الرأس، بينما الجمل يسير ثابت الخطوات برأس مرفوع. خرج بعد أن غادر جميع الركاب، تناول الكثير من الماء، أخذ منديلًا كبيرًا من جيب سرواله وشرع ينظف الزجاج الأمامي، ثم مسح المرايا الجانبية بعناية، واتجه بعد ذلك صوب الكشك القريب وابتاع قنينة أخرى من الماء البارد وعلبة بسكوت. تحدث قليلاً مع زملائه السائقين ريثما يتجمع الركابُ أمام باب الحافلة، ثم تفرقوا واتخذ كل واحد وجهته نحو حافلته. ارتقى الدرجات الثلاث وجلس أمام مقود الحافلة وأخذ يتأمل المارة. بعد مرور بضع دقائق فتح الباب إيذانًا للركاب بالدخول. ولما استقر معظمهم في أماكنهم أدار مفتاح التشغيل فارتجَّت أركان الحافلة واهتزَّت معها أجساد الركاب. تقدّمت فتاةٌ نحو الباب المُشرع وصعدتْ دون أن تتشبَّثَ بالقضيب المعدني، خفيفة الحركة رغم أنها من النظرة الأولى تبدو ممتلئة، لكن ضمور بطنها الذي لا تخطئه العين يعطي انطباعاً بأنها شابة قوية. ملابسها العصرية تمنحها رونقا وجاذبية، وراء سترتها البنية يظهر بشكلٍ مثير لباس خفيف ذو لون وردي غامق، وفي طرفه العلوي حاشية بيضاء مُنمنمة، وفوقها يُطلُّ الانشقاق الشهويّ لبداية صدر شامخ. وبدخولها ازدانت الحافلة بحضور حافل بالإثارة.. انتشر أريج عطرها فتحركت مكامن غافية في أعماق الرجال، وربما اشتعل فتيل

غرائزهم، ومن الوارد أن الشباب تجددت أشواقهم، كما أن الكهول قد يتذكرون بأسى وحنين لحظات مضت، وليس بعيداً أن تستيقظ مشاعر متباينة من غيرة وحسد في صدور النساء. هناك في هذا العالم شطر مخفي، ومن الصعب محاولة نسف حالة الإضمار التي يتوارى خلفها، فهذه الخواطر وما صاحبها من انفعالات وأفكار وخيالات، ممّا جاش في ظلمة صدور الرجال والنساء بدخول هذه الفاتنة يبقى خفياً، وهذا الخفاء قريب الشبه بكل ما هو مُدرَكٌ بغير الحواس.. يستحيل لمسّه أو شمّه أو تذوقه أو رؤيته أو سماع صوته، ومع ذلك لا يستطيع أحد إقناعك بعدم وجوده، لأن الجميع قد خبر الكثير من المتعة والكثير من الوجد دون أن يكون بوسع أحد أن يرتاح ليقين راسخ حوله، فحواسنا الخمس ليست سوى واجهة يمتد خلفها ذلك العالم المستور.

وقبل أن تخطو الفاتنة بعيداً عن الباب سمعت صوتاً رخيماً يطلب منها المساعدة بتودّد، فالتفتت وتقدمت نحوه ومدّت يدها فأمسكت كفه ثم جذبت برفق حتى تمكّن من الصعود، لم تحاول أن تعرف سبب طلبه فهو غير معطوب، وعمره لا يتجاوز الأربعين، لكن رائحة الكحول داهمتها بعد أن وقف بمحاذاتها، هذا على الرغم من وجود رائحة عطر رجالي أيضاً.. وعندما جلست في مقعدها لاحظت ميلانا في مشيته، كما أن نظراته تعكس غياباً وعدم اهتمام. تقدّم وفي يده كيس بلاستيكي أسود قد لا يكون محتواه سوى قناني البيرة.

التقط أحد الركاب تذكّره من موزعة التذاكر الآلية واتجه على الفور إلى أحد المقاعد الشاغرة، جلس وأخرج من جيب معطفه كتاباً، نظر حوالبه دون اكترات فيما هو يتململ قصد الوصول إلى أكثر وضع مريح ليشرع في استئناف القراءة حيث توقف عند الصفحة الخامسة والثلاثين، بعد مغادرته الحافلة في الصبيحة وهو متجه إلى مزاولة عمله. رمى نظراته عبر النافذة وهو يتابع خطوات امرأة جميلة، وسرعان ما شرعت نظراته في التهام جسدها الممتلئ، ومع أن مشيتها كانت محتشمة.. إلا أن مفاتها تُرسل ذلك النداء الخفيّ المثير، إنه في حال كهذه يصبح مأخوذاً وكأنه يتابع مشهداً سينمائياً مشوقاً فيضطر إلى مقاومة رغبة عينيه في الرمش، عادةً لم ينجح في التوقف عنها رغم كل ما بذله من جهود، والظاهر أن مرور السنين لم يكن له أي تأثير يُذكر بهذا الشأن مما زرع في يقينه أن التقدم في العمر لا يتوازي دائماً مع نموّ الوعي، ثم عزا ذلك في نهاية المطاف إلى حب الجمال وصعوبة التعامل مع النزوة، ولذلك وربما لأسباب غافية أخرى وجد نفسه في وقت ما يكفُّ بشكل نهائي عن محاولة منع ذاته من هذا الميل الغريزي الذي يخلق في داخله بهجة يعقبها في الغالب شعور بالندم، وذلك بعدما أخلف الكثير من الوعود التي قطعها على نفسه في محاولاته الفاشلة للتوقف عن هذه العادة، ويشعر كل مرة بأنه وسط قوتين تتجادبان، واحدة تُحرّضه على إطالة النظر حدّ الشبع، وهذا الشبع لا يحدث حتى تخرج آهة حارة من صدره، وأخرى تحاول منعه من الالتفات وتردعه عن

الاستمرار في النظر إلى هذه الدرجة المُخَلَّة بالوقار.. وكثيراً ما التفتت مفتوتا بالجاذبية الطاغية لأجساد بعض النساء بحيث تتبخر كل مقاومة لصدّ الرغبة في معاودة النظر التي تتكرر أكثر من مرة. أما إذا كانت الأنثى إضافة إلى روعة الجسد ذات بشرة بيضاء وملامح خلابة فإنه يتوقف عن التفكير، ويصير مُترعاً بخواطر تشبه اندياح الماء العذب الصافي من الينابيع. فتح الكتاب أخيراً وعدّل نظاراته ثم راح ينظر إلى الرُكّاب الذين استووا في أماكنهم. وضع يده في جيب سترته وأخرج قطعة حلوى وبدأ يمضغها بليوننة.. ثم شرع في القراءة.

غير بعيد رأى السائق رجلاً متسخاً يركض صوب الحافلة وفي يده اليمنى كيس صغير يتأرجح، وقد كان شعره المنكوش يرقص فوق رأسه بفعل طريقيته الغريبة في الجري، كما أن بشرة وجهه التي اعتلاها السواد إضافةً إلى يديه اللتّين ستظن انهما مغموستان قبل قليل داخل وعاء يطفح بنوع من الزيوت المحروقة، فضلاً عن بعض الاحمرار في عينيه، كل هذا جعل السائق يظنه من تلك المسافة شخصاً شريداً، إلا أنه دخل الحافلة وأدى ثمن التذكرة وهو يبتسم كأنما ليعتذر عما من شأنه أن تسببه حالته من رفض مضمر وسط الركاب، إلا أن ابتسامته لم تكن كافية بالنسبة للسائق وربما بالنسبة للركاب أو بعضهم على أقل تقدير. إذ قبل أن يتحرك إلى الداخل قال السائق بنبرة محتقنة :

- انتظر من فضلك، سوف..

غير أن الرجل قال مقاطعاً دون أن يكفّ عن الابتسام

- لا عليك، لن أسبب أي إزعاج، أنا ميكانيكي كما هو ظاهر. ولم أكن لأستقل الحافلة وأنا على هذه الحالة، إلا أنني في الواقع فعلتُ ذلك مضطراً، فقد أتاني فجأة خبر أن زوجتي على وشك الولادة.

أضاف وهو يفتح الكيس ويُخرج لباساً هو سروال وسترة في وقتٍ واحد.

- كما أنني في اللحظة الأخيرة أخذت معي هذا اللباس حتى لا أترك أثر الزيوت والشحوم الصناعية.

قال ذلك وهو يرتدي لباسه. وزيادة في الاحتياط وضع قفازاً ثم وقف مسنداً ظهره لجدران الحافلة.

كان السائق يهْمُ بالانطلاق عندما دخل رجل هو آخر الركاب، وقد كان واقفاً أمام الباب حتى اللحظة الأخيرة. قال السائق في نفسه: "أكاد أقطع بأنه كان في انتظار شخص ما، ولأن هذا الشخص تأخر فقد قرر الانصراف والمضي دونه. إن ذلك عادة ما يحدث". ثم همهم في داخله: "أو لعلّه لا ينتظر أحداً، وإنما تردد حتى اللحظة الأخيرة لأنه غير متأكد من مقصده.. هذا احتمال أيضاً. وتردّدُهُ هذا جعله يتقاعس عن السؤال والتحري، وكثيرون يقعون تحت تأثير فكرة خرقاء ولذلك يتأخرون في الوصول.. وربما يخطئ هذا الرجل بشأن وجهته فيصل في نهاية المطاف إلى نقطة ليس بينها وبين المكان الذي كان يودّ الوصول إليه أدنى صلة، بسبب أنه بنى قراره استناداً

على الظن والافتراض وليس على البحث والاستقصاء. هناك أيضاً من لا يبرحون أماكنهم لفترات طويلة وهم تحت ضغط وهم يحسبونه فكرة سديدة".

كان يبدو على هيئة الراكب الأخير وَهَنٌ واضح وسقمٌ لن يفلح في إخفائه حتى لو حاول ذلك، فلامحه تفضح وتعكس ترجمة صريحة لإنسان كابد ألماً لا حصر لها، وكأن يدا كبيرة غضوبا وقاسية كانت قبل ركوبه تعتصر وجهه بشراسة. وعيناه؟! إن فيهما انطفاءً وأفولاً.. ومن نظراته يلوح مزيج معتكر من اليأس والغضب المكتوم. يبدو كل شيء في هذا الرجل وكأنه يقف على شفير نهاية وشيكة.. يظهر ذلك من انعقاد ما بين حاجبيه، وغياب أي بريق في نظراته، حتى قبعته حائلة اللون تعطي انطباعاً بأنه شيء قديم ينتظر من يرميه في حاوية النفايات. كما أن جسمه ينوس في ذبول وهزال وهو يخطو برجلين تتحركان في اعوجاج وضمور. وبينما تقدم بعد حصوله على التذكرة ليبلغ المقعد الوحيد الذي ما يزال خالياً، إذا بالسائق يضغط على دواسة البنزين فانطلقت الحافلة، وإذا بالرجل يفقد توازنه تماماً فتداعى مثل جدار هش. صُعق الركاب، وانطلقت الصرخات من الأفواه: "يا ربي". "يا لطيف". "يا الله". بينما كانت صرخات النساء مبهمة لكن أشد وضوحاً من أصوات الرجال. وفي لمح البصر تحرك أحد الركاب بسرعة لافتة، وكان يبدو شديد الصلابة.. وتلقى الرجل الذي تداعى بيدين قويتين قبل ارتطامه بصفيح الحافلة، وساعده بعد أن استوى واقفاً على الجلوس، ثم عاد إلى مكانه. تبادل

الركاب نظرات الرضى وخرجت من الصدور زفرات  
الارتياح لنجاة الرجل. لكن مسار الأشياء أحياناً يرفض مثل  
هذه النهايات المريحة. لقد حدث شيء غريب قلب كل شيء  
رأساً على عقب، فبعد أن عاد المُنقذ إلى مكانه واستوى الراكب  
الأخير في مقعده إذ بجليس هذا الأخير يصرخ بصوت واضح  
سمعه الجميع :

- ما هذا؟ ماذا أسمع؟

سأل أكثر من واحد :

- ماذا؟

- ماذا هناك؟

- ماذا حصل؟

- ما المشكلة؟

لم يجب عن أسئلتهم بل واصل وهو ينظر بعينين متجهمتين  
إلى الراكب الأخير ثم أضاف بصوت ملؤه الغضب  
والاستغراب :

- لقد أنقذك هذا السيد من السقوط وأعانك على الوقوف  
وأجلسك في مكانك وكأنك أبوه.. كل هذا وتلعنه؟ ألا لعنة  
الله عليك يا سافل..

كان المشهد غريباً وهجيناً. والراكب الأخير لم يتحرك ولم  
يردّ، أما جليسه فقد هبّ واقفاً ثم تحرك بعيداً وهو يقول بلهجة  
لم تزايلها أمارات الغضب وإن تراجعته حدة صوته :

- محال أن أبقى جالسا جنب هذا الكائن المضطرب.

وتعلق بأحد المقابض الجلدية متحركاً نحو وسط الحافلة الفارغ، لكن فتى خاطبه قائلاً :

- يا عمّ.. سأنتقل إلى مكانك، لا عليك، اقترب واجلس مكاني، لا مشكلة، ربما يكابد الرجل همّاً لا ندركه.

تبادلا مكانيهما دون كلام، وسرّث في جسم السائق دبّبة خوف وتوجس.. ولعن الشيطان في سره وتمنى أن تمضي بقية هذا اليوم بلا اشتباكات. وقرر أن يواصل التزامه بما شدّد منذ أيام على الالتزام به والحرص عليه أثناء القيادة والاحتكاك مع الركاب والسائقين وكل ما يحدث حوله، لأن ما يصدر عن البشر أحياناً يكاد يكون كارثياً. وإذا كان يعرف أن الوقائع لا يملك لها رداً ولا دفعا وأن في وسعها أن تقتحم محيط المرء وتثير الغبار في وجهه وإن استعصم بالحياد، أو حتى لو اكتفى بمجرد الفرجة، فإن ما اتخذه من احتياطات منذ أيام ما فتى يؤكد لنفسه ويلح أنه ناجع، بل هو المفتاح الأوحد والحل الأكثر نجاحاً إذا أحب أن ينعم ببعض الهدوء وخلو البال، وأيضاً إذا أراد الاستمرار في شغله إلى أن يعثر على عمل أفضل. وأثناء ما هو مسترسل في مراجعة قراره، خطف عبر المرآة نظرات متتالية، فرأى الراكب الأخير وقد لاح الحرج على محياه، وزاغ بصره، فهو لم يُقدّر أن صوته سيفضح تلك الكلمات القاسية واليائسة إلى ذلك الحد. اضطرّ السائق للتوقف حتى هدأت الأجواء ثم قام بدفع الدواسة بهدوء فتحرّكت الحافلة من جديد. قال في سرّه: "يجب أن يكون المرء أكثر انتباهاً، إذ ليس بوسع أحد أن يزعم أنه يفهم الحياة فهماً تامّاً، لا يستطيع ذلك.

فالأحداث اليوم، غيرها بالأمس. ولذلك تُعدّ فكرة أن الحياة عبرَ ودروس مجرد مقولة شأنها شأن الأمثال المتداولة، تمنح الذهن ومضةً من الحقيقة ليس إلا. دروس البارحة لا تنفع اليوم على نحو كامل ومريح، إنها تتجدد بشكل دائم، ولهذا على المرء أن لا يركن للأرشيف المكّس داخل ذاكرته، وعليه أن يكون يقظاً.. فأحداث الحياة لا تُباغت إلا من يعتقد أن كل شيء صار واضحاً ومفهوماً وعادياً". تناول جرعتين من قنينة الماء البارد ثم واصل: "الأمر الأهم في المسألة أن يدرك المرء أن النظرية مجرد حُلم مرتب، لكن وقت التطبيق يصير من الضروري تعديل الكثير من التفاصيل، وعليه أن يجعل عملية التفكير مطواعة وأن لا يشتدّ تمسّكه بما يعتقد ظناً أنه الأصحّ".

كان الركاب ينظرون صوب المشهد بفضول ظاهر. ولاحظت نظرات السائق من خلال المرآة وهي تستطلع ما ستُسفر عنه المُشادّة الغريبة، فهو لا يثق في فترات الهدوء هذه، ويدرك تماماً أن الصدور لا تزال ملتهبة بشتات الخواطر. وتمنى من أعماقه أن ينشغل كل راكب بشأن آخر غير الفضول وتعقب متتاليات الحدث. إنه يعرف أن عقول بعض الركاب تُستثار بالأحداث الصغيرة والهامشية، وعندما يشارك فيها أكثر من ثلاثة يزداد توتره، أما حين يتحدث أغلبهم ويتحرك أكثر من شخص للتدخل فإن الحافلة تصير مسرحاً للشغب والمُلاسنة، وأحياناً للمواجهات والعراك. وكثيراً ما حاول تأويل ما يحدث غير أنه ينتهي اليوم إلى استنتاج لا يشبه استنتاج الأمس. وقد لاحظ أن الناس عادة ما ينجذبون للشجار والتوتر والرغبة في

القتال، ونادراً ما يحدث أن يتدخل أحد بطرق مخالفة لهذه العادة فينجح في تفكيك المشكلة وإعادة الناس المتشابكين إلى الرصانة والهدوء مذكراً إياهم بأسلوب يجمع بين الليونة والمنطق بأنهم ينحرفون إلى تصرفات يلوحون معها وكأنهم كائنات تفوقها الحيوانات ذكاءً.

من الواضح أن حياة الناس حين تتخللها الكثير من الفراغات، فإنهم يكونون سريعي الانجراف نحو أي شيء حتى لو كان خطيراً لمجرد الشعور بالامتلاء، أو لتذوق حالة مغايرة لمألوف تفاصيل أيامهم المتشابهة والرتيبة، التي تبعث على الملل والكآبة. فإذا صادف أن حيوات أكثر هؤلاء الركاب فارغة وتفتقر لاهتمامات مثيرة، فما عليه إلا الاستعداد لتوقع أن يتبرعم فضولهم ويتشعب، ويكون عليه حينئذ مواجهة ما يستتبعه من مناوشات، وأحياناً من نزاعات. فمن تجربته الطويلة في قيادة الحافلات يعرف هذه الأمور، ويبدو أن الناس يستيقظون من النوم وهم يشعرون بأنهم مُرغمون على ترك أفرشتهم دون رغبة، ربما لأن في دواخلهم يشعرون أنهم مُكرهون على تأدية أعمال لا يحبونها وليس من وسيلة تُعزّيهم في الآتي من الأيام طالما أنهم انتهوا إلى اليأس بعدما أدركوا، أن أعواماً كثيرة انقضت دون أن يحدث أي تحسن في وتيرة حياتهم، فقبل عشر سنوات وربما أكثر، كان الكثير منهم يصل إلى عمله عن طريق الحافلة حيث الاكتظاظ والالتصاق وخليط الروائح وحالات النزاع التي لا تنتهي، وها هم اليوم لا يزالون ينتقلون من البيت إلى العمل ومن العمل إلى البيت بنفس

الطريقة، ولا يزال كفاحهم حتى اليوم مستمرا ضد السقوط نتيجة هذه الرتابة، ولكن دون نجاح. ولأنها سلسلة متصلة ومستمرة فإنهم ينظرون إلى الأيام القادمة بعين الماضي، ولذلك لا يهّب الكثير من الناس من أفرشتهم بنشاط وسعادة وحيوية، هو نفسه يكابد هذا الوضع. قال في سرّه: "التفكير والتمني وحدهما لا يكفيان ولا يجديان.. العقدة في الحبل مرئية.. العقل يفكر ويعرف طريقة فكّها، واليدان تتحركان وتبذلان الجهد حتى تنحلّ، أما من يظن أن الأحلام تتحقق من تلقاء نفسها فمن السهل أن تنطلي عليه الأكاذيب، ومن المرجح أنه سيكون فريسة سهلة للأوهام والأباطيل. وما لم أجتهد لتغيير شيء ما فإن هذا الوضع سيستمر بلا انقطاع، وبالتالي لن يكون من المفيد لوم أحد أو شيء أو وضع أو حالة".

وبينما هو في غمرة أفكاره، إذ بالركاب يطلقون بلهجة استنكار تعليقاتهم :

- غير معقول! صاحبت سيدة.

أضاف شاب يجلس بمحاذاتها وهو يلوي شفتيه :

- غريب! من الصعب تصديق شيء كهذا لو كان مجرد حكاية، أما إذا كان المرء حاضرا وشاهدا.. فلا مجال للتكذيب.

التفت نحوهما رجل يحمل مذكرة في يسراه، وبين شفتيه غليون وقال مُضيفا بعد أن نزع الغليون من فمه :

- قطعاً هذا شيء غريب.. فإذا لعنَ وشتم من أنقذه، فمن الضروري وفق المنطق والبرهان والحساب أن يشكرَ السائق الذي اندفع بالحافلة قبل أن يستقر هو في مكانه، فلو تريت قليلاً حتى يستوي هذا السيد في مقعده لما عرض سلامته للخطر!

كان يتكلم وهو يحرك رأسه ويديه.. شمل الحاضرين بنظراته وتساءل بصوت مرتفع :

- ما رأيكم أيها السيدات والسادة؟

انفجر صوت كالرعد من عمق الحافلة :

- عين العقل.. قم أيها المتهالك وقدم للسائق تحية شكر لأنه عرض حياتك للخطر..

قال السائق مواصلاً حديثه الذاتي: "تّباً.. ها نحن نبدأ من جديد، إنها نفس البداية كما يحدث دائماً.. يُصر الركاب على حشر السائق أكان مخطئاً أم لا".

بيد أنه تدارك مواصلاً همساته الداخلية : "لكن هذا ليس عدلاً.. لقد تحركتُ فعلاً بالحافلة قبل أن يجلس هذا الرجل". ثم أضاف وهو يشعر بالتوتر يعلو وينخفض في داخله : "مهما يكن، لقد اتخذتُ القرار، وما عليّ سوى التجاوب بسلاسة ومرونة مع المجريات".

علقت امرأة أربعية تتردي ملابس مزدانة بتخاريم كثيفة قائلةً :

- الشكر لا يكفي.. قبل رأسه.

أضاف صوتاً آخر :

- بل قدّم له هدية!

علت الابتسامات الوجوه، بينما قهقهت امرأة مسنة دون تحفظ، وجارها بعض الركاب فزال الحرج وانخرط القوم في نوبة من الضحك.. مرّت لحظات قبل أن يعمّ الهدوء، فعلق صاحب الغليون قائلاً :

- إذا شكرَ السائقَ وقدّمَ إليه هدية، فعلية أن يبصق على الرجل الشهم الذي أنقذه من السقوط ويشتمه بصوت مرتفع.

صاح الرجل السكران صاحب الكيس الأسود بصوت رخو :

- انقلبت الموازين أيها السادة.. هذا أقل ما يمكن أن يقال.

أضافت الشابة التي أعانته على الصعود :

- الحياة غريبة حقاً، إنما تُتحفنا أحياناً بما يفوق الغرابة، إنه الذهول يا إخوة.

التفت صاحب الكتاب الذي لم يبارح الصفحة الخامسة والثلاثين نحو الرجل غريب الأطوار الذي أوشك على السقوط - فهكذا بدا الآن في أعين الجميع - وقال :

- إن الفضول يملكني الآن، أشعر باشتهاء جارف لاستكناه سبب ما صدر عنك أيها الأخ.. فهلاً تكرمت وأفرغت ما

في قلبك حتى نُزيل ستار الغموض هذا؟ أستمّ معي أيها  
الإخوة؟

قال السكران وهو يلتفت وينظر بعينين حراوين إلى الشابة  
التي ساعدته :

- الرجل مجنون من غير شك.

ثم سأل وعلى ملامحه أمارات الاستغراب قائلاً :

- هل أنت مجنون يا هذا؟

كان وجهه يتلون الآن بشتى تعابير الضيق ونفاد الصبر،  
وكانت شفتاه دقيقتين حتى ليبدو وكأن شقا طويلاً قد تمّ إحداثه  
بين الدقن والأنف. أمّا ملامحه فتعكس انطباعاً غير مريح، فما  
أن تنظر إليه حتى تشعر بانقباض لا تعرف كنهه. ولا يلوح أن  
قسمات وجهه ستكون مريحة حتى وهو في أقصى حالاته  
استرخاءً وبعداً عن المثيرات. أما الآن وهو على وشك  
الانفجار فلا بد أن تشعر وكأن العينين لا علاقة لهما بتلك  
الجبهة، وأن الأنف مقدود من وجه رجل يتعرض للضرب  
على خصيتيه، بينما الفم يظل مزموماً كأن صاحبه تتعاقب على  
مخيلته مشاهد اغتصاب بحيث يكابد انقساماً عاطفياً مكظوماً،  
ولهذا لا بد أن تشعر بالنفور من مواصلة النظر إلى تفاصيل  
وجهه. أما الحديث معه فسيكون بلا شك كابوساً حقيقياً.

أجابهم باستخفاف وتحدي :

- طُرْ فيكم جميعاً.. أنتم مخابيل.

أضاف وهو يلوي جانب شفته العليا بازدراء :  
- حشدٌ من الدهماء.

وفي عمق الحافلة جلجل صوت غليظ وكأنه خوار عجل :  
- الآن زال الغموض، صار الأمر واضحاً يا قوم.

ثم رفع يده ذات الشعر الكثيف حتى مستوى صدغه وأخذ  
يحركها بطريقة خاصة وأضاف :

- الرجل مجنون وأتحدى من يثبت العكس!

وهنا وقف الراكب الأخير وصرخ محتدّاً وهو يوزع نظراته  
الغاضبة على الحضور وقد تغير لونه :

- هل طلبتُ مساعدة أحد؟ أن أسقط أو تنكسر عظامي.. أن  
أموت حتى، ما دخل أيّ كان في المسألة برمتها يا أوباش؟  
ألسْتُ حراً؟ ألسنا جميعاً أحراراً؟

ثم ارتفع صوته وهو يضيف بلهجة حادة :

- لو هَمَّ أحدكم بإلقاء نفسه من النافذة الآن.. فأنا شخصياً  
لن أعترض! أتعرفون لماذا؟ بكل بساطة لأنه حرّ. هل  
تفهمون؟ أم أنكم مجرد أغبياء؟.. هه.. أجيوا، ما بالي لا  
أسمع صوتاً؟ صمت.. ثم صمت.. ثم أيضاً صمتٌ أيها  
السفلة.

عاد إلى الجلوس وأضاف بصوت أقل حِدّة وقد أذهله خلودهم  
للسكون :

- أغبياء. نعم.. هذه هي الكلمة، أغبياء. اللعنة عليكم جميعاً.  
قال صاحب الكتاب بلهجة باردة بعد أن رفع النظارات عن  
عينيه :

- الجنون يا سادة حالة وجودية مُحيرة ومخيفة، لأنها تُردي  
الإنسان إلى وضع يصعب وصفه، حالة مبهمة لانطفاء  
الإدراك يجمع بين الغرابة والغموض. فإذا كان بوسعنا  
الحديث عن مظهر المجنون الخارجي غير المرتب وغير  
النظيف، والذي يبعث في النفس مشاعر متناقضة ويفجر  
تساؤلات شائكة، ويوقظ مخاوف كثيرة، فإن حركاته  
وتصرفاته ونظراته تحرك داخل الوجدان خواطر مُقلقة  
بحيث يُصاب المرء بأنواع من الخوف حول هذا المصير  
لو حدث ما يجعله في وضع ينحرف معه نحو الجنون.  
والإنسان يُصاب بالحيرة عندما يقف مدهوشاً أمام  
الإنجازات والابتكارات المبهرة التي يبدعها العقل  
البشري، لكنه أيضاً يقف عاجزاً وذاهلاً وهو يلاحظ حال  
إنسان فَقَدَ القدرة على التمييز.

حرّك سبّابته وقال بصيغة توكيدية :

- أوكد لكم.. هذا الرجل مقهور بلا شك، وغاضب بلا جدال.  
من المحتمل أنه يئس حدّ الميل إلى الرغبة في العدم.. كل  
هذا وارد. لكنه قطعاً ليس مجنوناً.

صار توجّس السائق مضاعفاً الآن. وشعر أن طاقته على  
التحمل بدأت تتبدد. لقد بدأ صبره ينفد ولا بد من تنبيه الركاب

إلى مسألة مهمة، وبسبب هذا الارتباك دفع قدمه بدون وعي وبقوة فداس على المحرك، فاندفعت الحافلة بغتة نحو الأمام فتراجعت رؤوس الركاب إلى الخلف، ثم رفع قدمه فضغط على الفرامل فمالوا جميعاً فجأةً إلى الأمام. كان ينتظر أن يجنحوا على الفور إلى قذفه بالشتائم لكن أحداً لم ينبس بكلمة، فتشجّع والتفت التفاتة قصيرة نحوهم وقال محاولاً قطع الطريق على مواصلة هذا الحوار الذي يوشك على الانفجار :

- فلتعودوا إلى صوابكم أيها السادة من فضلكم. القيادة يلزمها الهدوء، وأرى أنكم أشبه بأطفال يتنازعون حول لعبة...

قاطعته فتاة تتدلى على يسار صدرها ضفيرة طويلة، وكان مقعدها بالضبط وراء الراكب الأخير ذي الشفتين الدقيقتين :

- لعبة؟! .. أطفال ! القيادة يلزمها الهدوء؟! وهل تسمي هذه قيادة؟

قالت ذلك وهي تنظر إلى الركاب.. ثم أضافت بحدة :

- أنظرُ أمامك أيها السائق واهتم بالقيادة، فأرواح الناس أمانة بين يديك. أما الخلاف الدائر هنا فليس من شأنك، وأما الهدوء فليس من شك أنه مجرد وهم. ركّز من فضلك على القيادة وحسب، وعندما تحصل على عطلتك، يمكنك حينئذ أن تقضيها في الجبال، وحينها يمكنك أن تنعم بشيء يشبه الهدوء.

أضاف شاب يضع طوال الوقت سيجارة بين شفتيه دون أن  
يعمد إلى إشعالها وهو يضحك :

- وكأنك نعمت بالهدوء يوما وسط هذا الجحيم.. ألم تفكر  
في تغيير مهنتك؟ ثم إن المسألة واضحة وضوح الشمس  
كما يقولون، شبّهت هؤلاء الناس كلهم بالأطفال، ونصبت  
نفسك الناضج الوحيد بينهم. لو أن لك نصيبا من التعقل  
لأدركت أن المقارنة بين اللعبة وبين هذه المسألة لا  
تستوي. وبالتالي أتحرجت من التدخل ولأقفلت فمك.. ثم..  
أست وحدك السبب في ما حدث؟

انتفض صاحب الكتاب ونزع نظاراته من جديد، لم ينجح في  
تقليب الصفحة منذ بداية الرحلة. كان عقله موزعا بين الحدث  
وما تلاه من حوار، وبين محاولة التركيز على الكلمات  
المرسومة التي مرت عليها عيناه أكثر من مرة دون هضم،  
قال وهو يلتفت ناحية الشاب :

- هذا حق والله. يسلم لسانك.. هذه ورطة حقيقية وليست  
لعبة، علينا أن نتوخّ الحذر. فالوضوح والانفتاح يلزمهما  
الميل صوب المنطق والفهم والمرونة، أما التسرع  
وإصدار الأحكام فليس خليقا بنا، أليس كذلك؟ فالرجل يريد  
أن يقول لنا إنه حر وهذا حقه، وإذا مالت نفسه إلى الموت  
فليس لأحد أن يمنعه أو يفتخ فمه بالنصائح والمواعظ..  
الأفكار والمعتقدات والقناعات لا تتغير بسهولة، لأنها  
محفورة بشكل عميق في أعماق الإنسان، وإذا تعلق الأمر

بمثل هذه الأوضاع المصيرية فالمسألة أبعد ما تكون عن البساطة. هذا رأيي، ولا بد لهذا البائس من فكرة عميقة وسديدة تحلّ مكان هذا المُعتنق الوبائي الذي يحصده من الداخل، وحرّيّ بهذه الفكرة العميقة أن تُغيّر وجهة نظره إلى النقيض تماماً. ولكن كيف؟ هذا هو السؤال.

تحرك رأسه يمناً في التفاتة توشك أن تشبه اتهاماً صامتاً أو تلميحاً لنوع من الارتياب وأردف :

- أديك يا سيدي أدنى فكرة عما ينتظرك لو مُتّ الآن؟ هل أنت مؤمن؟ هل أنت كافر؟ هل أنت متدبب؟ ثم هل يمكن لو استقصيت حياتك، أن تجد سبباً يبعث في قلبك الرغبة في الاستمرار؟ أعني فكرة تراودك بين الفينة والأخرى.. شيئاً وددت طوال حياتك فعله ولم تفعله حتى الآن؟ وهل ندمت لأنك جنّت إلى الحياة؟ وهل تؤمن بأنك فعلاً حرّ؟ ما موقفك من الوجود كإنسان يائس؟ وهل تعتقد أنك حقاً إنسان؟ كلها أسئلة عليك أن تطرحها على نفسك.

أثار هذا الكلام خواطر المُنقذ فقال في نفسه : "كلام دقيق.. فلو أن المنتحر أعطى نفسه فرصة للتفكير في شيء مازال يودّه رغم الظلام الدامس المستحوذ في داخله لما أقدم على الانتحار، فلا يمكن لحياة إنسان أن تخلو من شعلة.. ذكرى رائعة.. أو رغبة مزهرة.. أو أي شيء حار من هذا القبيل".

عاد صاحب الكتاب إلى وضعه والتقت عيناه مصادفة بعيني السائق عبر المرآة العاكسة ثم أضاف وهو يرفع حاجبيه مشيراً بسبابته إلى الراكب الأخير :

- قطعاً لم تكن هكذا طوال حياتك.

انتفض السائق وشعر بارتعاشة في قدمه، ورمشت عينه اليسرى وحدها. أما الراكب الأخير فقد دفعه كلام صاحب الكتاب إلى الشرود.. "فكرة؟ شيء أحبه؟" قفز هذا السؤال في ذهنه فتغيرت ملامحه، وطافت ابتسامة واهية بشكل سريع على محياه. لكن أحداً لم يلاحظ هذه الابتسامة لانشغال الجميع بحديث صاحب الكتاب واستطراداته. أما هو فقد واصل همسه الداخلي بينه وبين نفسه : "وهل ما يزال في الوقت متسع لمثل هذا الكلام؟ يا الله.. والصحة؟ أنا مجرد كتلة من الهمّ والوهن، أحلامي صارت بعيدة. أشغل معظم وقتي بانتظار النهاية، أجتزّ المرارة من الصباح إلى المساء كل يوم، وأنام مهيبض الجناح مشغول البال".

واصل صاحب الكتاب قائلاً :

- وهنا لا بد من طرح السؤال التالي: "لماذا يفرح الإنسان حال وجود سبب لهذا الفرح.. ولماذا يقلق كلما لاحت بواعث تدعو للقلق؟". قد يبدو السؤال في غاية البساطة وبوسع أي واحد إطلاق العنان للسانه فيجيب.. بل ربما يهمس البعض في سره قائلاً : "يا له من سؤال سخيف". لكن لا داعي للتسرع. فقبل قليل وصفنا السائق بالأطفال..

واستنكرتم ذلك.. لماذا؟ فقط لأنه تسرع كما لاحظتم جميعاً. أنا لا أقصد شيئاً محدداً بهذا الكلام، أحاول فقط رسم أسهم كثيرة نحو الإمكان المتعدّد.

من الواضح أن الجميع بدأ يولي اهتماماً خاصاً بما يقوله هذا الرجل، فالكلّ يلتفت نحوه كلما شرع في الكلام. أمّا نبضات قلب السائق فإنها تتسارع على نحو يشعر معه بأن الزمام ينفلت بين يديه. واصل صاحب الكتاب كلامه وقد لاحظ الاهتمام في عيون الركّاب قائلاً :

- نعود إلى السؤال. لماذا في رأيكم أيها السيدات والسادة؟ فالأمر يبدو طبيعياً وقد يسأل سائل: "ألَسنا بشرًا؟". ويقرر آخر دون تمحيص: "إن ذلك من طبيعة الأمور". لذلك فلنحاول تفكيك المسألة.. ولنطرح هذا السؤال تمهيداً لمزيد من الوضوح: "أليست استجابتنا لأسباب الفرح وبواعث القلق سريعة وآلية تُظهر أننا نُقدّم العاطفة والميول والغريزة على التعقل والإدراك والوعي؟ أليس حرياً بنا ونحن بشر أن نحفظ بالاتزان والمراقبة قبل أن ننعطف ونميل نحو المشاعر التي يجب لزوماً أن تكون في المرتبة الثانية بعد الأفكار؟ أقول هذا استناداً إلى الزّعم بأننا نفوق كل الكائنات الأخرى بشيء واحد وإن تعددت أسماؤه ومعانيه.. سموه أنتم عقلاً أو قلباً أو وجداناً أو فؤاداً أو وعياً أو ذكاءً أو ما شئتم. إنه ما يميزنا ويجعلنا ذوي فرادة بين كلّ ما خلق الله. وإذا فتحنا أقواساً للاستطراد وضرب الأمثلة لأصبحنا في حاجة لرحلات

أخرى غير هذه حتى نشفي الغليل، ولكن لكل رحلة نهاية.. أليس كذلك أيها السائق؟! أنا فقط أحاول فتح مجال أرْحَب للرؤية عسانا نبلغ أقاصي الإمكان ونفتح ثغرات في جدار الغموض لغاية واحدة: "الفهم". ما رأيكم يا إخوة؟

طرح صاحب الغليون هذا السؤال بعد أن كتب جملة قصيرة في مذكرته :

- هذا كلام في غاية الجمال ولكن ما علاقته يا سيدي برغبة صديقنا في الفناء؟

التفت من جديد هذه المرة وشمل الجميع بنظرة استقصاء، فوجد الفضول والرغبة في الاستزادة من تفاصيل أخرى لأجل التوضيح، لذلك واصل :

- وأيضا ما علاقته بالسائق؟

انتفض قلب السائق مجدداً وانتشر فوراً ساخناً في صدره وبطنه، وتساءل عن السبب الذي يمنع الإنسان من التخلص من حالة مزعجة وبشكل فوري ودون أدنى تردد إذا كان فعلاً يتمتع بحرية حقيقية؟ مثلاً لماذا لا يُوقَف هذه الحافلة بهدوء وكأن الأمر برمته لا يعنيه، ويخرج ويشعل سيجارة، ثم وبكل برود يذهب ليحتسي فنجان قهوة في مكان بعيد وجميل.. في مقهى على الشاطئ مثلاً، وليسقط في الهاوية كل شيء يمكن أن يكون سبباً في الاضطراب؟ ما المانع؟ وانداحت كل الآثار

والعواقب المُرتقبة في ذهنه وانتشر دبيب أصمّ عبر خواطره  
مثل زحف الثعبان تحت الثياب.

جنب إحدى نوافذ الحافلة سيدهُ تفرش على رُكبتها مجلة،  
وتُنصت بانتباه شديد لكلام صاحب الكتاب، وحين لاحظت  
خلوده للصمت بعد أن طرح سؤاله، رفعت يدها اليسرى  
ودفعت أصابعها خلل شعرها وردّته إلى الوراء ثم اتجهت  
بسؤالها إليه :

- يا أستاذ.. نحن ننتظر.

وقف والتفت وهو يضع نظاراته ليرى السائلة.. فهو وإن كان  
يتحفّظ في إبداء اهتمامه بالنساء بشكل مباشر، إلا أنه يفقد  
تركيزه عندما يصدمه مفتن نسوي على نحو مباغت، إنه مثل  
جميع الذكور يهتم بنزوعه الغريزي بقدر اهتمامه بعواطفه  
وكذا بأفكاره، ويحترم انجذابه للجمال تماشياً مع كل ما تمنحه  
الطبيعة والوجود من هذه الروائع التي لا تنتهي. لقد أعجبه  
صوت هذه السيدة، فيه غنة جاذبة ورخامة دافئة مما أكسبه  
عذوبة مُلفتة. وأثناء ما هو ملتفت نحو صاحبة المجلة رفع  
السكران قنينة بيّرة وفتحها دون تحفّظ ودلق بعض الجرعات  
في جوفه وقال بصوت رخو :

- طبعاً.. طبعاً. نحن نود سماع الأستاذ الجليل، يبدو أن لديه  
إلماماً واسعاً بالمستجدات وعلم الرفس والأولويات  
والابستيمولوجيا وعلم الحشرات... وهلمّ جرّاً. أشعر  
بالحرارة الشديدة، لو كانت هذه الحافلة بلا سقف لكان

أفضل، هات ما عندك يا أستاذ.. العلم نور، لكن البيرة أفضل.

قال صاحب الكتاب بسخرية :

- علم الرفس!

أضاف وهو يحرك رأسه باستهانة :

- اللعنة على الخمرة.

قال السكران على الفور :

- لا تلعن الخمرة يا أخي.. إنها نعمة.

- إنها لعنة.

- غير صحيح.. هل تعرف يا سيدي أن الأطباء مازالوا

عاجزين عن شفاء مرض الخوف؟ لا يوجد ترياق

لمحاربة هذا الوحش الذي ينهش دواخل الإنسان.

وقف بصعوبة وفتح الكيس البلاستيكي وأخرج بيده اليمنى قنينة

ويسكي وأردف :

- لو أكلت الطبيب نفسه ما عاد عليك ذلك بأي نفع لإزالة

الخوف.

الرجل ليس سكراناً كلياً، بل تستخفه نشوة الخمرة، لكنه يتحدث

بمنطق خاص، رفع القنينة عالياً وأضاف مبتسماً :

- هذا هو.. لا تحتاج إلى طبيب أو مراهم أو أقراص أو

عقاقير، جرعات متلاحقة تكفي، ومثل السحر تجعل

الخوف يطير.. ويبتعد، ثم يختفي. بل وتشعر أنك سعيد،  
وفوق كل هذا تبدو الحياة بسيطة وجميلة. وتكون قادراً  
على مواجهة أي حالة ببرود وذكاء.

قال صاحب الكتاب بلهجة تقريرية :

- هذا وهم..

حرك رأسه ومالت ملامحه إلى الازدراء وأضاف:

- الحياة أعقد من هذا بكثير، تلوينها بين الحين والآخر  
بالوهم والسعادة المزيفة لا يليق بالإنسان.

ورغم أن السائق كان يريد التدخل وربما التوقف لإخراج هذا  
السكران من الحافلة إلا أنه تغاضى وغض الطرف طالما أن  
الركاب منشغلون بالحوار حول السكر وغفلوا عن السؤال الذي  
طرحه صاحب الكتاب عن دور السائق.

أعاد السكران القنينة إلى الكيس وهو يقول :

- السعادة مجرد شعور، وأنا لا فرقَ عندي بين أن يكون  
هذا الشعور مزيفاً أو أصيلاً طالما أنه يغمرني بالانشراح.  
ماذا يريد المرء أكثر من ذلك؟ وهذا السائل السحري يفعل  
الأعاجيب.. صدّقني.

قال الرجل الذي أنقذ الراكب الأخير في نفسه وهو يرسل  
نظرات جانبية صوب السكران : "هذا الإنسان يمكن أن يُشكل  
خطراً عندما يكون من يحيطون به بلا مناعة معرفية، فمثله  
يُتقن فن الإغواء، ولديه القدرة على حجب الخطر والقبح،

وتسليط الضوء على مكامن الاشتهاء. لو امتدح القذارة بأسلوب الإثارة هذا، لتمنى السامع الإقامة في أي مزبلة".

قالت الفاتنة ردّاً على السكران :

- هذا صحيح إلى حدّ ما.. لكنني شخصياً أفضل الاحتيال على المنغصات بذكاء. سرقة السعادة بين أشدق التحديات أكثر إثارة من أن أتسوّلها من أقذاح الكحول أو ما شابه. ثم إن الخوف سيتجدّد ما أن تزول السكرة، وهذا يعني أنك ينبغي أن تظل في حالة سُكر دائمة.

كانت السيدة التي تقلب صفحات المجلة تراقب الركاب بين الفينة والأخرى دون أن تتغافل لحظة واحدة عن سياق الحوارات. وقد التفت صاحب الكتاب مأخوذاً بالرخامة الجذابة في صوتها عندما قالت مُعقّبة على كلام السكران :

- يا أخي.. أنا أفهم أن يخاف المرء مثلاً من صاحب سلطة جبار لا يقف أي اعتبار للمبادئ الإنسانية أو خشية الله أو أي شيء آخر أمام تسلّطه وجبروته. أما أن يخاف من الوهم، فهذا غير قابل للفهم، ذلك أن الجبار المتسلط بوسعه أن يفتك به، بينما الوهم لا يملك أي قوة أو سلطة. إنه مجرد فكرة لا حول لها ولا قوة، إنما يصنع لها المرء بمخيلته أذرعاً أخطبوطية، ويضع في هذه الأذرع ما يتصوره من أسلحة، ثم يُحني لها هامته، ويركع أمامها، ويتعذب بذلك بكل أشكال العذاب، كل ذلك وهو لا يتعرض واقعياً لأيما تهديد.

انبهرَ صاحب الكتاب وانشرح صدره لا يدري أكان ذلك بسبب ميله الفطري للأنوثة والجمال، أم جرّاء فكرتها العميقة حول الفرق بين الخوف الملموس والخوف الوهمي.

قال السكران بتسليم :

- هذا رأيكم.. ونقاشنا حول الأمر لن يغير شيئاً، نريد وجهة نظرك إذا تكرمت يا أستاذ حول...!

عَمَرَتَه على الفور حالة التباس كأن كلام صاحبة المجلة وكذا حديث الفاتنة قد غرز مسماراً يعلوه الصّدأ في خاصرته فقال متسائلاً :

- عن أي موضوع كنا نتحدث؟

قالت الفاتنة وكأنها تترصد زلّة مثل هذه:

- تماماً.. ها، الواضح أنها لعنة.

قال ذو الصوت الرعدي وهو يرفع يده المشعّرة مُذكّراً :

- لقد تشعّب بنا الحديث، أعتقد أننا توقفنا عند سؤال الأستاذ "وما علاقته بالسائق؟" أليس كذلك يا أستاذ؟

اهتزّ السائق من مكانه واعتكر مزاجه ولعن في سره هذا الصوت الذي أعاد الجميع إلى النقطة التي ظنّ أنها نُسيب، بينما طوى صاحب الكتاب زاوية الصفحة الخامسة والثلاثين على شكل مثلث صغير وأغلق الكتاب وقال :

- هذا صحيح.. طيّب :

خرجت هذه الكلمات من فمه بصوت خفيض وهادئ ثم تابع :

- إليكم الجواب الآن أو بالأحرى وجهة نظري حول المسألة. الاستجابة الفورية سواء للمثيرات الخارجية أو لتضارب العواطف والأفكار داخلنا صورة واضحة للاستسلام. فلو أن هذا السيد أعطى نفسه وقتاً لتمحيص جميع وجوه مشكلته لما أقدم أغلب الظن، حسب ما أعتقد وأقدر، على فعل ناقص ومشين كرغبته في الموت، أو على الأقل لانجرافه للسقوط دون أي محاولة للتشبث بأي شيء. ونفس التأويل بالنسبة لموقف السائق مما حدث.

لاحظ السائق أن خوفه بدأ يتلاشى، فيما شعور بالإلهام بدأ يشرق في عقله جراء ما سمع من كلام صاحب الكتاب هذه المرة، فهمس بصوت خفيض : "أي والله.. أعترف أنني لا أفهم بالضبط ما يرمي إليه، ولكن لا أستطيع تجاهل ما قاله.. وكأنه يترجم على نحو صادق وواضح قراراتي".

قال الراكب الأخير وهو يبصق بين قدميه:

- يبدو أن الشيطان يسافر معنا في هذه الرحلة.

استغلّ السكران ذكر الشيطان فمَسَحَ جبهته من العرق بكُمّ قميصه ثم عدّل قبعته الشمسية وقال :

- دعوه.. أنا أعرف بعض الأمور حول مثل هذه الحالة.

رازه صاحب الكتاب بعينين متسائلتين بينما حاجباه يرتفعان قليلاً وقال :



انعطاف الحافلة بين الحين والآخر، وعندئذ تُعْمُ الفوضى ويشعر الركاب بالضيق ويطلبون من السائق رميه من النافذة، لأنه يتناول الخمر في مكان عام ممّا ساهم في البلبلة داخل الحافلة. غير أنه لا يزال حتى اللحظة يُدهشهم بحديثات من الحديث لا تخطر على بال أحدٍ منهم، كما أنه بقي ملتزماً بمراعاة الهدوء والرزانة رغم السُّكْر، مما جعل صاحب السيارة يشك في أمره، فظن أنه إنما يتناول الماء وليس الخمر، فقام من مكانه واتجه صوبه ثم اقترب منه متودّدا ومدّ نحوه سيارة غير تلك المشبوكة وراء أذنه قائلاً بمودة :

- خذ.. السيارة جيدة عند الحديث. نَفْسٌ وجرعة.. ويحلو الكلام.

تناولها السكران شاكراً وهو يقول :

- لن أُرَدَّ الهدية، لكن سوف لن أشعلها إكراماً للسائق، فهو بعد كل شيء من يقودنا نحو وجهتنا.

لوى السائق شفّتيه امتعاضاً، وتبادل الركاب نظرات الاستغراب بينما قالت المرأة المسنّة وهي تضحك :

- قمة الإحساس بالمسؤولية، اللعنة.

أدرك السكران قصدها فردّ بهدوء وهو يشير إلى جدران الحافلة قائلاً :

- هناك فقط لافتتان، الأولى تمنع الكلام مع السائق، والثانية تمنع التدخين. هل توجد هنا يا سيدتي الكريمة لافتة أخرى تمنع الكحول؟

ردت قائلةً وعلى قسمات وجهها أمارات الضيق والغضب :

- هناك محظورات لا حصر لها يا هذا، فلو وضعوا لكل ممنوع لافتةً لاختفى جدران الحافلة وراء المُلصقات.

حركت يديها بتأفف وأضافت :

- لو كان الأمر بيدي لكمّثُ فمك.

رفع صاحب الكتاب يده عالياً وقال :

- ما علينا، لنترك له المجال ليحكي القصة مادامت تصبّ في صُلب موضوعنا، أقصد حالة هذا الرجل الذي من المؤكد أنه يحتاج إلى المساعدة.

تجاهل السكران المرأة المُسنّة وأخذ كيسه واحتضنه مثل طفل وقال :

- أعرف أن هذا السيد يتمزّق من الداخل. هل يوجد هنا أحد لم يمر خلال حياته الماضية ولو مرة واحدة بتجربة مريرة؟ أما أنا فبلى. لكنني أتمكن في معظم الأحيان من إيقاف هذه الأفكار الماكرة التي تجعلني في عين ذاتي رجلاً تافهاً، لا أدعي أنني بخير الآن.. غير أنني عشتُ حياةً ضخمةً وحافلةً، لو رجعتُ وبدأتُ من جديد لما

أخترتُ حياةَ أخرى غيرَها. والدليلُ أنني حين أتذكرُ أبتسم كثيراً وأضحك كثيراً ولا أشعرُ بالندم إلا لِمَأمًا.

تناول جرعةً ومسح شفتيه، مرَّرَ كُمَّ قميصه على جبهته واستأنف :

- يُحكى أنه في حقبة من التاريخ كان هناك رجل قلبه مكتظ بالأفكار القاتمة والوساوس والرغبات البدائية، وأنه كان ينشر سمومه حيثما حلَّ بكلمات حارة، ودودة، مقنعة، بمقدرة عجيبة على النفاذ إلى قلوب الآخرين، كان بوسعه أن يُحوّل حتى اللذات والمتع إلى جحيم، نجح في جعل بعض الشباب ينقادون نحو تبني أفكار فحواها أن الحياة مجرد مأساة متواصلة، وأنها تفتقد لأي مبرر يجعلها جديرة بالاستمرار، وأن البشر لو امتلكوا الوعي الكامل بكونها تافهة، ولأن العيش غير دائم، فضلاً عن كونه مليئاً بالألم والعبث كما يزعم، لاتفقوا جميعاً على الانتحار الجماعي دفعة واحدة. كان يقول بأن التشاؤم هو حالة ذهنية طبيعية لا تحتاج إلى أي تبرير، فكل شيء يدعو إلى المسرة والفرح والأمل إنما هو أوهام لا تمت لحقيقة الحياة بصلّة، وهذه الحالة من القلق والاضطراب التي يعيشها البشر على اختلاف مشاربهم ومستوياتهم مصدرها عميق وحقيقي، وإلا لماذا يشعر بها حتى الأغنياء، وكذلك أصحاب النفوذ؟ وهذا يكفي كدليل قاطع لا أحد يستطيع رده. ولذلك فانتظار الموت مهزلة حقيقية، وأن الإنسان يجب أن يسبق موعد الفناء، ويختار نهايته

في الوقت الذي يحدده، والمكان الذي يعجبه والطريقة التي يختارها.

أضاف بعد أن أجال نظراته في أركان الحافلة وقد شجعه الصمت والانتباه قائلاً :

- لقد انساق مجموعة من الأفراد وراء هذا الإنسان الكئيب فانتحروا جميعاً، بينما بقي هو حياً ليستمر في تبليغ رسالة النحس التي يؤمن بها.

رفع فوهة القارورة حتى لامست أنفه وتشمّم رائحة المشروب ثم أصدر آهة ارتياح وتابع :

- وسيتم قتل هذا الرجل في الحانة مساء يوم خريفي، وقد كنتُ حاضراً...

قاطعته في الحال صاحبة المجلة قبل أن يستمر قائلة بلهجة استخفاف :

- ألم تقل إن القصة حدثت في حقبة ما من التاريخ؟

لكنه ردّ بسرعة حتى لا يترك مجالاً للآخرين لمنعه من تنمية القصة :

- وهل حضوري أثناء الحدث يلغي تلك الفترة من التاريخ يا سيدتي؟

بوغت صاحب الكتاب من سرعة الجواب ودقته فقال :

- من الأفضل ألا نقاطعها أيها الإخوة. واصل من فضلك.

استأنف السكران بعد أن حرك عنقه يمينا ويسارا قائلاً :

- احتدم الحديث في الحانة ذلك المساء حتى وصل ذروته عندما هبّ أحد الحاضرين وكان يقعد أمام ذلك الرجل المشؤوم ليضع حداً للحوارات الدائرة بين المرتادين عندما أشهر مسدسه ليطلق النار على جليسه. ثم قام من مكانه مُحوّلاً تسديدة الماسورة وبدأ يحركها بين الحشد الواقف قائلاً: "هذه هي الحرية. وما عداها هرطقة، أما أن نترك مثل هذا الشيطان يصول ويجول بيننا فهو العبودية". لوهلة تسارع ما يشبه غيوماً سوداء في ذهني، وبقيتُ مثل الحاضرين تحت وقع المباغته. عمّ الصمت، لكنه صمتٌ طافح بالدوي الذي خلفه الطلق الناري. بعدها سرت بين الحاضرين هممةٌ خفيفةٌ كردّ فعل لتخفيف الخوف والقلق. كان رأس الضحية ينزف، وفي ارتداده مستندا على خلفية المقعد، كانت عيناه تُرسلان نظرات فارغة إلى السقف. وكانت قطرات الدم التي تسقط على الأرضية قليلة مما يرجح أن لباسه قد امتص أغلب ما نزف حتى الآن. أما صاحب المسدس فقد رفع باليد الأخرى القنينة وسكب ما فيها في كأسه، دون أن يهمل تركيزه على المرتادين، ودون أن يُرخي اليد التي تصوب المسدس. كانت قطرات الخمر الأخيرة وهي تسقط داخل الكأس بتباعد وقعها، تعطي انطباعاً بما يكابده المحتضر من استشعار تباعد الأنفاس الأخيرة، ونضوب انبعاثها من الداخل. وفي لمح البصر اندفعت نحو الباب كالبرق وكان

ما تناولته من الخمرة قد تبخر بفعل الصدمة والخوف.  
واصلت الركض طويلاً حتى خارت قواي، ولأني بلا أهل  
ولا مأوى فقد غادرت تلك المدينة في تلك الليلة.

التفت نحوه صاحب الكتاب بعد أن وضع سبابته وسط الدفتين  
حتى لا يضطر للبحث عن الصفحة الخامسة والثلاثين ثم طرح  
هذا السؤال :

- وما المغزى من هذه القصة.. أو ما علاقتها بحال  
صاحبنا؟ .

أجاب الشاب قبل ان يتكلم السكران :

- أظن أنه يقصد أن الإنسان الكئيب يمكن أن يكون مثل  
الطاعون الذي ينتشر مثل النار في الهشيم، وأعتقد فضلاً  
عن ذلك أنه يريد أن يقول بأن تصفيته تشبه إطفاء تلك  
النار قبل أن تنتشر الكآبة مثل العدوى بيننا.

قال السكران وكأنه يتخوّف مما سيسفر عنه هذا التأويل :

- أنا لا أقصد البتة أن صاحبنا وباء، هذا الرجل الذي يسافر  
برفقتنا لا ينشر مثل تلك الأباطيل، لكنها بلا شك تنشب  
مخالبتها في داخله فعلاً مثل الطاعون، هذا أمر واضح.  
فحالته إذن لا يمكن أن يكون لها أي تأثير سيء إلا على  
نفسه.

كانت السيدة الجميلة تتصفح مجلتها، وتنظر بين الفينة  
والأخرى خارج الحافلة، وتمضغ العلكة بطريقة مثيرة، وفي

عينها تلوح حالة من عدم الاهتمام، حرّكت فجأة رأسها لتشمل نظراتها الجميع ثم توقفت عيناها على الراكب الأخير وهي مستثارة بكلام السكران، فتذكرت ما قاله صاحب الكتاب ولهذا توجهت بسؤالها إليه :

- وكيف تعرف أنه ليس مجنوناً يا سيدي؟ فالكثيرون يتصرفون في الخفاء بجنون بينما لا يبدو على ظاهر أحدهم ما يفشي شذوذهم وغرابتهم.

أجاب بشكل فوريّ منصاعاً لصوتها وهو يضع قطعة حلوى بين أسنانه :

- لكي نحدد تعريفاً للمجنون لابد من تحديد ماهية للعقل. الإنسان العاقل عادة ما نضفي عليه سمات الاتزان، ومجملها لا يعني شيئاً آخر سوى الانضواء تحت المواضع الاجتماعية والأعراف والقوانين، ولذلك فهو ملزم باحترامها والتقيّد بتفاصيلها ليُحسَبَ سوياً بين العقلاء. أما الجنون فهو حالة مخالفة تماماً. فالمجنون رث الثياب، غريب الحركات، هائم النظرات، غامض الكلمات، لا يقيم وزناً لأي من الاعتبارات أو القوانين أو التقاليد. إنه صورة مناقضة تماماً لكل ما تقدّسه وتحترمه الجماعة. والأسوياء يعتقدون إجماعاً أن حالة المجنون شاذة، بينما يمكن أن يرى المجنون حال الأسوياء أشد غرابة ومدعاة للسخرية. فحرّيته لا تُخوم لها بينما الأسوياء مُقيّدون جميعاً بأصفاً غير مرئية، وهذا الرجل

كما ترون.. إنه مليء بالغضب ليس إلا، وهو الآن يبحث  
عن طريقة للتنفيس عن هذا الغضب.

قال الراكب الأخير بهدوء وكأنه يعترف لصديق بمعاناته :

- أنا لست مجنوناً ولا غاضباً، أنا يائس وكاره لكل دقيقة  
تمرّ وأنا لا أزال على قيد الحياة.

قال صاحب السيارة :

- اليأس له حلول كثيرة، أما الجنون فلا. سبق أن وصف  
الأغبياء الأنبياء بالمجانين فهل هم كذلك؟ إذا كنت عاقلاً  
كفاية فأنت تستطيع هزم اليأس...

سألت ذات الضفيرة صاحب الكتاب قائلة :

- وكيف يُجن الإنسان يا سيدي؟

عضد ذو الصوت الرعدي سألها مضيفاً :

- هل لديك فكرة يا أخ؟

لحسن جوانب شفتيه وأجاب وهو ينفذ عن سترته بقايا الحلوى  
قائلاً:

- ليس لدي جواب لكل شيء.. حتى عمالقة المعرفة لا  
يملكون أجوبة شافية عن الكثير من الأشياء والحالات.  
الأسئلة يا إخوتي بحر، بينما الأجوبة في أحسن الأحوال  
مجرد قطرات، ولذلك عليكم أن تنتظروا لما أقول على أنه  
مجرد وجهات نظر، رؤوس أقلام ليس إلا. أي معرفة ما

هي في الحقيقة سوى قطرة في محيط، خطوة في مسار، حبة رمل في الصحراء. والإنسان يظل طالباً في رحاب المعرفة التي لا ضفاف لها، حتى النهاية. أعتقد أن الجنون لا يحدث فجأة، بل عبّر سلسلة متصلة من الشكوك الحادة والمخاوف الشديدة، ذلك أن اتزان المرء يرتكز على شيئين أساسيين: اليقين وهو الإيمان، ثم الشعور بالأمان والانتماء، وهكذا يكون حرّاً حتى لو كان مُصقّداً، وهادئاً حتى لو زلزلت الأرض تحت موطئ قدميه.

أخذ قطعة أخرى وقضم جزءاً منها ثم واصل :

- امسح من ذهنك كل يقين تؤمن به ثم املاه بالشكوك، واترك للمخاوف أن تجتاح وجدانك وأضمن لك بعد فترة أن تصير مجنوناً. لكن الشك يمكن أن يكون بناءً حين يكون أداة لاقتلاع الأفكار الضارة كما يفعل المزارع حين يستأصل بعض النباتات التي تزاحم مزروعاته. الخطر الذي يحدق بالإنسان الشكاك حين يرتاب دون ترتيب ولا تمحيص، هو أن حياته سيصير طعمها مرّاً مهما تناول من مأكولات لذيذة، إن المرارة التي يخترعها الشك الشديد في ذهنه لا يمكن تحليتها حتى لو وُضعت وسط الحلاوة الطاغية.

أخرج قنينة ماء صغيرة من جيب سترته وأخذ جرعة صغيرة واستأنف :

- الشك أيها الإخوة، من أخطر أعداء الإنسان. الشك الكبير يشبه قطرة سم تُسكبُ وسط كوب من الماء، فهي تُحيل هذه الكمية من الماء التي تفوق كثيراً مقدار السم الضئيل إلى سائل مسموم. وهكذا يصبح المرء رهينة حتى دون أن يقع أسيراً بيدِ عدوّ ملموس، كما أشارت السيدة قبل قليل وهي تتحدث عن الفرق بين الخوف المادي الذي يأتي من العالم الخارجي وبين الخوف عندما يكون منبعه من داخل الإنسان. لقد سلم معصميه لأحلك المشاعر، وأشد الأفكار ظلامية وشدوذاً. هذا ما يحدث في غالب الأحوال.. فإذا لم يفهم الإنسان مكر أفكاره، بحيث يتركها تمر مثل العابرين لتختفي مثلهم وراء منعطفات اللارجوع، فليس من منفذ أمامها سوى أن تقطن في قلبه ما دام قد قطع عليها كل مسالك الخروج. إنها تكتسب بمرور الوقت شرعية الإقامة داخل الصدر.. ويكون شغلها الشاغل أن تعصف صباح مساء بكل ما كان يعدّه أساسياً ومنطقياً.

شعر السائق بسبب حوار الركاب وكأنه يدخل إلى سرداب أسود فانتابه الضيق والخرج، فتح النافذة المجاورة له حتى أقصاها فاندفع هواء هجيرى لفح وجهه فازداد شعوره بالضيق. ضرب المقود وانفجرت نافورة من الأفكار الضبابية في عقله. وراح يلوم نفسه لعدم قدرته على تذكر تلك الوعود التي قطعها على نفسه، وتساءل عن السبب في كونها تتبخّر في نفس الوقت الذي يكون في أمسّ الحاجة إليها. ألم يعقد العزم على تجاهل

وَأَدْنَات الركب ومشاجراتهم وحواراتهم؟ ما الذي يحدث إذن؟ وكيف يستسلم هكذا مثل خرقة لخواطره بسهولة ورخاوة؟ ولماذا ينجرف مع كل ما يصدر عن هؤلاء الركّاب وكأن عقله مجرد آلة عمياء تطحن دون رقيب كل شيء يوضع داخلها؟ أليس العقل أداة تمحيص وغرلة تركز على الوعي والإدراك؟ كان المُنقذ يجلس لصق النافذة، إنه يُتابع كل ما يحدث، لكنه ينظر أغلب الوقت خارج الحافلة، وهو وإن كان لا يردّ على أحد ولا يُبدي أية ملاحظة فإنه يواصل همساته وخواطره مع ذاته. قال في نفسه تماشياً مع ما قاله صاحب الكتاب: "معهُ حق.. فالشعور بالملل والرتابة حالة داخلية ليس لها علاقة مباشرة بما هو خارج الذات، ذلك أن الحياة تتصف بشيء واضح لا تخطئه الحواس، لكن العقل يدركه إدراكاً تاماً، وهو يمنع حدوث مشاعر الملل وكل مرادفاته، هذا الشيء هو ثراء الحياة بالتنوع والتحوّل. يلزم أن يكون المرء أكثر يقظة لملاحظة الفروق الكثيرة الموجودة بين الأشياء التي تبدو وكأنها متشابهة، الشيء الذي يُنضج داخل وجدان الإنسان مناعة ضد اليأس وإقبالاً على هذا الوجود الزاخر. ومهما أنفق المرء وقته في ملاحظة اعوجاج الحياة واجترار الألم، فالوجود سيظل مُركّباً من المفارقات.. أي من الأشياء المتناقضة التي يتناوب فكر الإنسان إزاءها بين القبول والرفض، فيما يتعاقب شعوره حيالها بين الرغبة والنفور. ثم إنه لا بد أن يكون الشخص غيباً بشكل زائد ليقع بشكل مستديم فريسة لخواطره

الدامسة. هذه قاعدة أساسية يجب أن يتعلمها هذا الرجل اليائس".

كان صاحب الكتاب ينظر اتجاه السائق ويتتبع حركاته من بعيد. ومن الواضح أنه يتقصد توجيه الكثير من كلامه إليه بالتحديد وإن بدا أنه يتحدث بطريقة عامة وشاملة فيما يلوح فحواه خاصا بالراكب الأخير، وإلى حدّ ما بالرجل السكران. ولأنه لاحظ أن الصمت ران على الجميع فقد استنتج أن كل واحد تأثر إلى حدّ ما بكلامه وأنهم انغمسوا في التأويل والتحليل بين رفض وقبول ومناقشة ذاتية مُضمرة. ولكي يوقظهم من هذه الجولة الذهنية التي تدور في خفاء النفس قال وهو يسترق النظر إلى السائق :

- والعجيب أن للجنون فتنة رغم ذلك.. لكن السؤال هو، من أين له هذه الفتنة، هذا السحر ذو الجاذبية المعجونة بالغرابة؟ ربما جرّاء الشعور بأن الحياة بكل هذه الأثقال والمهام والمسؤوليات، وهذا الكم الهائل من العبودية والقوانين.. كل هذا يدفع فئةً معينة لترزح أكثر من الآخرين تحت وطأة القهر التي تُؤدّ الرغبة في الفرار، فيشعر الفرد منهم بأنه مُحاصر وعاجز. فيكون الجنون في هذه الحالة هو مواصلة العيش دون همّ ولا ثقل ولا ندم أو خوف. وكأنه نوع طريف وهجين من التحرر والهروب.

هبت ریح حارّة خارج الحافلة فاندفعت عبر النوافذ المفتوحة فسارع أغلب الركاب لإغلاقها. تتابعت صفحات المجلة المفتوحة فوق رُكبتَي السيدة. عدّلت خصلات شعرها بعدما تبعثرت فوق وجهها بفعل هبوب الريح وقالت ردّاً على حديث صاحب الكتاب :

- لو كان الجنون والتمزق العقلي والتصدع العاطفي مفتاحاً لاختاره الجميع، غير أنه الطريق الأقصر نحو الإقبال. واصلت وهي تفتح مجلتها بينما نظراتها مُصوّبةٌ نحو السكران :

- أما الخوف وهو عدو الإنسان الأكثر فتكاً وضرارة فيجد كل مرة مثيراً خارجياً يدفعه لاكتساح الوعي حد العمى غير أن قوته تكمن في الأعماق، ذلك لأنه يجد ألف سبب للاندلاع، مستفيداً من الاحتياطي القابع في الذاكرة من الآلام الماضية. والخمرة تعجز حتى عن إتمام عملية نسيان هذه الآلام، أما مسحها بالكامل إلى غير رجعة فأمر مستحيل.

قال السكران دون تعتعة وبلغة مختلفة وكأنه يدافع عن ضرورة قبول ما يعرفه كل واحد عن حالات عدم الاستقرار التي تنتابه بين فترة وأخرى والتي يداريها في داخله خشية اتهامه بأي نوع من الاضطراب :

- قد يبدو ما سأقوله غريباً بعض الشيء حول المسألة، ماذا يعني أن تكون عاقلاً؟ أعتقد أنه أن تجمع بمرور الوقت

دزينة من تجارب الغوص في عالم الجنون، وهذا للتذكير ما تفرضه الحياة، وهذه الدزينة تمنحك القدرة على أن تغطس عميقا وتتمكن في لحظة ما من الطلوع منفلتا بين الكائنات المتعطشة والجائعة وتهرب إلى شاطئ الاتزان ثم تستلقي على شاطئ الهدوء وقواك العقلية تتكهرب من الفزع. والحمولة الكاملة لضروب الحياة عبر الأمكنة والأزمنة تفوق بما لا يُقاس تجربة المرء بحيث تبدو محاولة المقارنة مسألة مثيرة للضحك.

تنحني وابتلع ريقه وتابع بصوت أقل وضوحا وكأنه يحدث نفسه :

- تضع تجربتك المتواضعة أمام خبير وتنتظر، كومة من الخبرات الصغيرة إزاء محارب عركته الحياة. مثل فتى يعشق لأول مرة في حين أن التي يعشقها طُلقَتْ أكثر من مرة، بل كان لها باع طويل مع الرجال حتى قبل الزواج. سكب جرعات متلاحقة في جوفه وأردف موجهها حديثه للسيدة صاحبة المجلة :

- لن تعرفي يا سيدتي مدى ضرورة أن تكوني عاقلةً حتى تُجربِي الجنون ولو للحظات، فالحالات تُعرف بأضدادها، وليس بمرادفاتها.

لكنها ردّت بلهجة ساخطة قائلةً وهي تحذف خصلات الشعر المتطاير عن وجهها :

- الجنون عبث عقلي شبيه بالبحث وسط القذارة عن شيء نظيف.

أخرج قوارير البيرة من الكيس وقدم واحدة للرجل ذي الصوت الرعدي وهو يقول :

- إلى الجحيم إذن.. النقاش ينتهي معظم الأحيان بعدم الاتفاق. خذ يا أخي، ولنشرب نخب الاختلاف الذي لا يفسد للودّ قضية.

تناولها وهو ينظر ذات اليمين وذات الشمال كأنه يستقرئ مواقف من يحيطون به من الأمر، ولأنه لم يلاحظ على ملامحهم ما يشي بالسخط أو الرفض أو الاستغراب فقد أزال غطاءها ورفعها إلى أعلى وبدأ السائل يندلق عبر بلعومه مُحدثاً صوتاً يشبه بلاعة دورة المياه مما جعل الركاب يلتفتون جميعاً نحوه، ولبث كذلك حتى آخر قطرة، وعندها أخذ ينظر إلى القارورة بشهوة. تجشأ مثل ثور وأعادها فارغة للسكران ثم قال :

- أنا أتفق معك.

أردف وهو يبتسم ويلحس جوانب فمه :

- إنها نعمة.

قال السكران بفرح :

- أليس كذلك؟

حتى صاحب الكتاب لم يصدر عنه أي ردّ فعل يوحي بعدم الاتفاق، لم يقل شيئاً عن الأمر ولم تتغير ملامحه تعبيراً عن أي نوع من الاحتجاج أو حتى الانزعاج، وهذا رغم آرائه السالفة حول الخمر ممّا جعل السائق يتمزّق شعورياً حيال أمر هذا الرجل، أي "صاحب الكتاب"، الذي لا يستقر على رأي أو موقف. تشجّع السكران فأخرج قارورة أخرى وناولها لذي الصوت الرعدي الذي أخذها بلهفة وسرور، غير أنه قدمها هو الآخر لرجل تمتدّ على وجهه جنب الحاجب الأيسر ندبة عميقة فنزع على الفور غطاءها، ودون أن يقول كلمة واحدة بدأ يكرعها هو الآخر مثل ثور عطشان. قرّر السائق في سرّه أن يتجه رأساً إلى أول مخفر شرطة ليتخلص من هذا الجحيم، أسرّ في نفسه أن الأمر سيكون شبيهاً بإفراغ شاحنة النظافة لحمولتها من مختلف القاذورات بعيداً خارج المدينة. فداخل هذه الحافلة حثالة من الدرجة الأولى.. فحتى من يبدو وكأنهم أفاضل الناس إلا أنهم يكابدون بلا شك فُسولة من نوع غريب بحيث لا تعرف كيف يكون بوسعك تصنيفهم، كما أن المرء لا يمكن أن يأمن جانبهم. أما السكران فقد جازف عندما قدم قنينة أخرى لذي الصوت الرعدي وطلب منه أن يتكرّم ويناولها لصاحب الكتاب، وهنا تغيّر شيء ما في الحال داخل الحافلة مثلما يتغير الجو فجأة عندما ينقلب المناخ. بدأ الجميع بمن فيهم السائق يراقبون ذا الصوت الرعدي وهو يتنحّح مُثَقلاً بكُتلاته اللحمية ثم وهو يقف أخيراً ليتحرك صوب صاحب الكتاب الذي بدا وكأنه كان ينتظر، مما جعل السائق يسترق النظر ما

استطاع إلى ذلك سبيلاً ليتابع الحدّث من خلال المرآة العاكسة، كما أن بعض الركاب يتابعون الأمر فاغري الأفواه كأنهم لا يصدقون. أمّا وقد تناولها صاحب الكتاب فقد صار الأمر مفروغاً منه بالنسبة للسائق على وجه التحديد، فما يحدث هذه المرة قد فاق وتجاوز كل السفاهات الماضية. هذا الانحدار الطائش لم يعد من الممكن تحمّله. أما المنقذ فقد اعتكر باله عندما تناول صاحب الكتاب القارورة في حين كان من المتوقع أن يرفضها، قال في نفسه وهو يحاول فرز الأحداث التي صارت متداخلة وفاقدة للمعنى: "هذا الرجل يثرثر كثيراً، لكنه يلوح مع ذلك مثل علبة محكمة الإغلاق، لا تلبث أن تشعر بأنه إنسان كتوم رغم هذا الهطول المدرار للمفردات والجمل والعبارات، وستلاحظ أيضاً أنك لا ترى إلا سطحه الذي يموج، بينما كل الحقيقة هي الجزء المضمّر في أعماقه ويبقى طي الكتمان مهما حاولت اختراقه، وهذا الصنف من البشر، إما خطير ويخفي مخططاً ما، أو أن في جوفه أسراراً يعرف كيف يخفيها دون أن تزام شلال حديثه".

لقد انتشر مناخ مكهرب بالغرابة والتناقض وسط الحافلة. والحق أنه منذ بدأ صاحب الكتاب يتدفق بالأحاديث المتشعبة كان عقل السائق يطوف دون أن يستقر على رأي أو ينتهي إلى تبويب هذا الرجل ضمن فئة معينة من البشر، وفي أحيان أخرى يتمايل عقله مثل البندول، وفي الحاليين فهو لم يستطع تجاهل شعوره بعدم الارتياح حياله. ويتقاسم الآن مع الراكب الأخير فكرته حين قال بأن الشيطان يسافر معنا في هذه

الرحلة. ذلك أن تغيّر المواقف يعدّ بالنسبة لصاحب الكتاب مثل رفض تناول طعام معين بامتعاظٍ ونفسٍ مسدودة، ثم بعد قليل يتم الإقبال بنهم وشراهة على نفس الطعام. أما عندما جرّ السكران الكيس ورفعته فقد اكتسح غضبٌ شديدٌ قلبَ السائق. قال وهو يُخرج كل القوارير :

- يبدو أنها نعمة، الراغبون في الشرب يجب ألا يشعروا بأي حرج أيها الحضور الكريم. لنشرب نخب الحرية.. من يريد أن يشرب فليشرب، ومن يريد أن يرمي نفسه من النافذة فليفعل، ومن يريد أن يرقص فليقف وليرقص. أما أنا فساغني.

قال ذلك ومدّ القوارير لذي الصوت الرعدي قائلاً بصوت رحب تغمره حالة من الحبور :

- قُمْ بتوزيع هذه القوارير يا أخ.

وخلال لحظات تحول المكان إلى ما يشبه الحظيرة، عربدت الخمرة في العروق وتصدع جدار الخجل وتداعت الروادع وانكشف النزوع الغريزي وسرى بين الخلق كالوباء. كان السكران في البداية قبل أن يدخل إلى الحافلة يظن أنه سيضطر لاستغلال الركاب من أجل تناول المشروب، لحُسبانهم أنهم سيغترضون لو حاول ذلك علناً. ولذلك وقَبَلَ الركوب صبّ محتوى قارورة خمرة بيضاء داخل عبوة ماء فارغة حتى يظنوا أنه إنما يتناول الماء فحسب، ولأنه مغمور برائحة النبيذ ولمزيدٍ من الاحتياط فقد عمَدَ إلى رشّ نفسه بما يكفي من

العر حتى لا يكتشف أحد لعبته. أما الآن فيبدو أن الأمور قد خرجت عن السيطرة، إذ من الواضح أن الركاب أخرجوا السائق عن طوره، وهو فاقد القدرة على التحكم في مجريات ما يحدث داخل الحافلة رغم كونه قائدها، فالجميع يتحدث على هواه، والسكران يتناول المشروب دون أن يضطر للنظر بعينين ملوئهما الانتباه والشك. ويشعر الآن بالزهو إذ رأى أمارات الانتشاء على وجوه الذين تناولوا البيرة. وها هو يطأطئ رأسه قليلا، ثم ها هو برفع نظراته من جديد مبتسماً بينما يحرك رأسه يمناً ويسرة. إنه الآن يصير شخصا آخر.. ولا أحد يعرف كيف حدث ذلك، ينظر بطريقة خاصة فتتسع عيناه ثم في لحظة تضيقان وهو يرسل نظرات جانبية نحو السائق. وفي لمح البصر ألقى برأسه إلى الوراء وهو يضحك بصوت مجلجل، وهذه الضحكة تنتهي بصوت يشبه الشخير. وقف أخيراً وشرع في الرقص بينما تتابعه عيون الركاب وهو يتمايل، ثم توقف عن الرقص وبدأ في الغناء بصوت خفيض في البداية، عاد إلى الصمت عدة ثوانٍ وخفّض صوته في المقطع الثاني أكثر من ذي قبل، ثم بدأت النغمة ترتفع رويدا وبصوت رخيم حتى صار من الصعب عدم مجاراته. كانت الأغنية شبيهة بنشيد لا يكتمل أدائه حين ينفرد به شخص واحد، ولذلك صاح ذو الصوت الرعدي بصوت فيه خشونة زادته شيئاً من الشدة فتحمّست ذات الضفيرة والشاب صاحب السيجارة وانضاف صوتهما ليشكّلا عذوبة أخاذة، فلم يتمالك أحد من الباقيين نفسه، وسرعان ما شارك الجميع بالتتابع في

الغناء حتى خُيِّلَ للسائق في لحظة ما أن الحافلة تُحلق في الفضاء، وأن هذه الأصوات التي ترتفع مع كل ثانية تمرّ، ستُحدث شقوقاً في سقفها، ثم تتفتّت في النهاية شظايا طائرة في الجهات الأربع.

أما بعد أن هدأت عاصفة الرقص والغناء والعريضة، وبعد أن عاد الجميع إلى أماكنهم، وملامحهم تعلوها الابتسامات، وشعور بالاسترخاء قد انتشر في أعماقهم، فقد انتهز السائق فاصِلَ الهدوء العام داخل الحافلة وقال وهو ينقل عينيه عبر المرآة العاكسة بين الركاب :

- هذا جنون..

أضاف وهو يمسح العرق عن جبينه :

- هناك فجوةٌ كبيرة بين أعماركم وبين تصرفاتكم. أوباش ومجانين.. اللعنة.

قال السكران بهدوء وكأنه غيرُ معنيٍّ بأحكام السائق، أو كأن هذه الأحكام مجرد كلام مُدرج في سياق حوار ودّي :

- هذا وارد، من المحتمل أننا مجرد مجانين. الجنون يا سيدي مثله مثل كل محاولات الإنسان للتخلص من رقابة المجتمع كما أشار الأستاذ قبل قليل. وهو يشبه ما نراه من شذوذ وعصيان وثورات ومعاقرات بكل صنوفها، كل الغرابة وحالات الانفلات وظواهر الفن والسياسة والابتكار، وربما أشياء أخرى لم أذكرها.. كلها ردود فعل

متفاوتة تتجاوب ضد العرف والقانون على نحو غير طبيعي فيه الكثير من العنف والكثير من الرفض، وأيضاً الكثير من التفوق والسموّ والمجد.

فتح صاحب الغليون مذكرته ثم وضع شرطة أول السطر، ثم تساءل وهو ينظر إلى السكران نظرة إعجاب لم يقوَ على إخفائها :

- جميعنا نعرف أن الإنسان يفعل كل ما يفعله استجاباً للمتعة واللذة، أو تجنباً للألم والعذاب، أما الشذوذ فليس إلا مجلبةً للضياع والمرض والنبذ، حتى لو كان صاحبه مبدعاً. ما رأيك؟

قالت الفاتنة باستهانة :

- تسأله عن رأيه؟ ومتى كان للسكران رأي سديد حول الحقيقة مادامت عقولهم نهباً للفوضى والتقلب؟

التفتت الفتاة ذات الضفيرة وقالت وهي تحرك سبابتها:

- ربما تكون لديه خبرة في الخمر، وبالتالي يمكنه كخبير أن يتحدث باستفاضة حول هذا الأمر، في حين سيخفق الآخرون في ذلك قطعاً.

قال السكران بعد أن لعق حافة فوهة القارورة :

- تماماً يا جميلتي. اللذة يا سادة، لا لون لها ولا موطن ولا هوية، هراء. أما عندما تشرب كأسين، فإن كل الحدود تتساح وتصير رملاً، والقيود التي تكبل اللسان واليدين

تتفكك ولا يعود لها وجود. أتعرفون ماذا يحدث حقاً؟  
أصير أنا وما حولي شيئاً واحداً. وحين تصل الأمور إلى  
هذا الحد، فالألوان بكل اختلافاتها تصبح لونا واحداً أيضاً.  
أردف بلهجة تحريضية وكأنه يدعو من لم يتناول المشوب بعد  
لاختبار تأثير الكحول :

- إن كلامي الآن لا يمكنه تفسير الحالة يا سادة.. أبدأ والله.  
ينبغي للمرء أن يجرب كل شيء ليفهم. من نافل القول أن  
الإنسان يجمع عن الحياة الكثير من الانطباعات  
والخواطر، وهي ذات طابع خاص إلى أبعد الحدود وإن  
كانت مشتركة بين كل الأجناس البشرية. وأحياناً يكون  
بعضها في غاية الغرابة بل والشذوذ أيضاً. فحالة مثل  
حالتي، وهنا إنما أضرب مثلاً ليس إلا.. وأقصد هنا  
محبتي ورغبتي في أي امرأة، تستوي عندي الجميلة  
والذميمة خاصة عندما أتناول قدراً جيداً من المشروب،  
لا يعني بالضرورة فقدان الحس الجمالي، هذا ليس  
صحيحاً بالمرّة.

همس السائق في ذات نفسه : " من العبث محاولة التحدث مع  
هؤلاء بطريقة منطقية ونظيفة، فهم ينتقلون من موضوع إلى  
آخر على نحو فوضوي فاقد لأي تسلسل، أما محاولة إقناعهم  
فهي ضرب من الجنون".

طَرَحَتِ الفاتنة التي أعانتهُ على الصعود هذا السؤال وقد غلبها  
فضول الاستزادة من التهاويل التي يُرسلها خلال أحاديثه :

- وما هو الصحيح أيها السيّد؟

التفت قليلاً بعينين ناعستين تعلوهما حمرةٌ خفيفةٌ وطبقة ضباب  
نديّة بفعل الخمرة.. قهقهه أولاً ثم قال مُجيباً :

- لم أكن أتوقع أن أسمع صوتاً نِسويّاً يطرح السؤال بهذا  
الشان.

أردف وهو يبتسم :

- ألا توجد امرأة فاتنة ولكن متوحشة الطباع وسليطة  
اللسان وبالتالي صعبة المراس؟

أفرغ جرعة على لسانه داخل الفم دون أن تلمس شفتاه فوهة  
القارورة فاندلق بعض المشروب على ذقنه وسترته ثم استمرّ  
في حديثه قائلاً :

- هذه لن أتقرّب منها ولو كانت المرأة الوحيدة على  
الأرض، لا أجد ما يشدني إليها بل أرغب في الابتعاد  
عنها حال رؤيتها. وتوجد في المقابل امرأة لا بأس بها  
من الناحية الجمالية، ولكنك تتجذب إليها رغماً عنك بفعل  
حسن المعشر، فهي قريبة من النفس، خفيفة الحركة،  
ينتابك فور رؤيتها شعور بالارتياح، حلوة الكلام، وكل ما  
يصدر عنها يبعث على النشوة، تجعلك تلتهب وتصير  
رجلاً آخر، وهذه المفارقات بالمناسبة تسري أيها السادة  
على الحياة كلها. أما عندما أنتشي فهذه المقارنات

والمفارقات تختفي تماماً.. المرأة هي المرأة وكفى.. فاللذة لا لون لها في هذه الحالة.

أضاف مستهدفا صاحب الكتاب:

- وهذه الحالات أقرب إلى الأخطا الكيمائية كما قد يعرف أي مثقف.

سأله ذو الصوت الرعدي وهو يضحك :

- وكم تعتقد أنك تناولته من هذه النعمة منذ بدأت الشرب.  
- إبيه.. براميل. إنني أشرب كثيراً. وفي أحوال الصحو أظل تحت سيطرة الشروط الاجتماعية، وأغلبها كما أرى أباطيل محنطة وطافحة بالخداع والتضليل، إنما صاغه المجتمع لأن أفراده يخاف بعضهم بعضا، فاضطروا لبناء منظومة شاملة من النفاق والمواربة وستائر للتواري ومخابئ لاشعورية لبيتلغ بعضهم حريات بعض في الخفاء. وأطلقوا على كل هذا الزنخ أخلاقا. بينما تُمزق هوية الأخلاق الأصلية وتُحرق في الأركان القصية المتوارية حتى دون أن يبدو لها دخان.

جرّ صاحب الغليون قلمه وكتب شيئا في مذكرته وأرسل هذه الملاحظة دون أن يرفع رأسه :

- من الواضح أنك ستكون ثقيلاً وبغيضاً ووحيداً دون شرب.

- دون شرب أكون متوتراً، غالباً أدعك مناطق مختلفة من وجهي، أنظر بغباء، أتخيل أشياء لا حصر، أُصَوِّب عيني نحو أي شيء.. أتنفس الصعداء أكثر من المعتاد، أتحدث بلباقة حتى أبدو متحضراً وذا خلق بينما تقفز كلمات كالجنادب بين شفتي راوغتُ كثيراً لتفادي قولها دون نجاح.. ثم أحاول اقتناص الشعور الذي أحدثه هذا الافتضاح في الآخرين. الأمر مختلف عندما أعبّ كأسين.. أصير نشيطاً دون تعتعة، شجاعاً دون وقاحة، يمكنني أن أضيف نقطة قد تبدو بلا أهمية، هي أن هذا السائل السحري جالبٌ لنوم سريع وخالٍ من الأحلام، بوسعي أن أغرق في حالة رقاد تشبه الموت حال وضع رأسي على الوسادة، بينما تتقلبون أنتم لساعتين مليئتين باسترجاع الذكريات وهددة المخاوف ومداعبة الأحلام، وكل هذا ينقلبُ إلى وساوس، ثم إلى كوابيس أثناء النوم.

تحنح وتناول قنينة بين يديه ثم قال وهو يتفحصها بحمبة :

- يؤسفني أنها مُحَرَّمَةٌ! حقاً .

هاجمهُ السائق بهذا السؤال :

- يؤسفك أنها مُحَرَّمَةٌ؟

أجاب بسرعة وكأنه كان ينتظر هذا السؤال :

- أعتقد أن الله حرَّمها لأن البشر يسيئون استعمال المُباحات، فما بالك بالخمرة، إنها نعمة خطيرة يا رجل.

كان السائق يُنصتُ إلى السكران بنوع عميق من الانتباه، وهو الآن يتواكب مع فكرة أنه صورة أخرى من صاحب الكتاب، وأنهما معاً متطابقان رغم هذه الاختلافات التي نلاحظها في الظاهر لأول وهلة. فليهما نفس الجنوح اللفظي الذي يذهب كل مذهب، كما أنك ستنتهي بعد فترة إلى استنتاج أن لا أحد منهما يؤمن تماماً بما يصدر عنه من أقوال. وأنهما سيتحولان خلال ومضة برق مائة وثمانين درجة لسبب غير واضح في الغالب، مثل طاحونة الهواء التي تدور مطواعة حسب اتجاه هبوب الرياح. لذلك قال بصوت واضح وهو ينظر من خلال المرآة العاكسة إلى الراكب الأخير:

- كما قلتَ يا سيدي، إننا فعلاً نساfer مع الشيطان، غير أن من الواضح أنه ليس شيطاناً واحداً فقط.

راحت المرأة المسنة التي تجلس لصقَ النافذة ترسل نظراتها عبر الزجاج ثم قالت باقتضاب:

- إذا كنتَ تسكر لتجلبَ النوم الذي يشبه الموتَ كما تقول فهذا يعني أنّ الموتَ راحة.

وبدأ الجميع مجدداً :

- الموت مخيف.

- إذا صارت حياة الفرد خالية من أي عزاء، واكتسحت البرودة مساحات شاسعة من وجوده، فمن جهتي لن أومه إذا تآقت نفسه للموت.

- الموت يأتي وحده. وكل اجتهاد للوصول إليه يعتبر في رأيي شذوذاً. إنه مثل الولادة، يحدث وكفى. هل فعل أحدٌ أي شيء ليُخلق مثلاً؟ وهذا الرجل غريب الأطوار هل قام بمجرد حركة صغيرة أو بَدَل أي جهد ليولد؟

- هذا صحيح تماماً، إنما يتدخل الآخرون في معظم الأحيان لمساعدته على الخروج إلى هذا العالم، الطبيب والممرضون أو الممرضات، وهذا أمر شائع وطبيعي، ولهذا ألا تُعدُّ مساعدة هذا الرجل المسكين للخروج من هذا العالم أمراً طبيعياً أيضاً؟

عادت العجوز فقالت مجدداً :

- الموت راحة، وأي راحة..!

فكر المُنقذ في حال هذا الرجل المتهالك في مقعده مثل كيس قمامة وقال في نفسه : "الإنسان حين تنقطع الأواصر التي تربطه بالحياة تنتابه العواطف القائمة ويتمنى الفناء، ويبدأ دون وعي في تلمس الطرق والوسائل لبلوغ النهاية. ربما يكون التعرّض للتحديات سُنَّةً من سُنن الوجود، لكن الإنسان في عموم الأحوال يرفض الانصياع لنداء السخط والرفض إزاءها، ويختار عن إرادة وحب مواجهتها بوعي، تماماً كما يفعل الطفل مع لعبة صعبة، فقلبه ممتلئ بالإثارة وعقله مرتبط بكل عقدة في اللعبة ليجد لها حلاً يمر من خلاله للصعوبة التالية، فيعيش وجدانه استمتاعاً متواصلًا. ورغم أنك أحياناً تتمنى الموت، إلا أنك لن تقف مكتوف اليدين حين ترى النهاية

وشبكة، عندما ينقضّ عليك أحد لسبب ما وهو ينوي القضاء عليك، فإنك ستستमित من أجل النجاة حتى لو كنت في تلك اللحظة يائساً، بل وتبذل جهداً مضاعفاً من أجل الفوز في العراك والحسم في الأمر حتى ولو اقتضى الحال القضاء على الخصم، كل هذا وأنت تكتم في داخلك مرارةً حادة تُؤدّ فيك رغبة عارمة في الخلاص ولو بالموت، فماذا يسمى هذا؟ الحق أن اليأس رغبة مزيفة في الموت، إذ حين يفيق المرء أخيراً ويخرج من تلك القتامة، فهو يقول بتصميم : "فليذهب اليأس إلى الجحيم" . هذا الحيوان الصغير ذو المخالب الحادة، عليه أن يتراجع، أن يتبدّد. لقد حان الوقت ليغيب أخيراً، سأعيش حتى آخر لحظة.. يجب أن أرى ما الذي سيحدث".

طرق أصابعه ومدّد عموده الفقري ثم استأنف حديثه الخفي وهو يتنفس الصعداء : " ليس على هذا الرجل المُستاء إذن إلا أن يغير زاوية نظره ولو قليلاً".

غادر خواطره حين بدأ صاحب الكتاب حديثه :

- كل كلام عن الموت أيها السادة إنما هو شيء زائد لا ضرورة له ولا معنى. أتعرفون لماذا؟ لأنه تجربة يخوضها المرء ويمضي، فلا يعرف الباقيون على قيد الحياة كيف يسألونه ولا هو يعرف كيف يخبرهم عن تفاصيل ما حدث. إن المسألة إذن محسومة، ومفادها "لا خبر". لذلك فالكلام عن هذا الموضوع من صنيع الأغبياء

والأدعياء. الحصييلة يا إخوة، أن يكف كل من سؤلت له نفسه إبداء رأي بهذا الشأن قبل أن يهم بتحريك لسانه.

أضافت السيدة صاحبة المجلة :

- حق والله. لا أحد يعرف عن الموت شيئاً، وعلى هذا الأساس، يصير الخوف شيئاً زائداً ولا ضرورة له، أكان حيال الموت أو إزاء أي خطر آخر. فالأمر سيان.

قالت سيدة أخرى تلبس ثياباً تفضح جسدها أكثر مما تسترته:

- لذلك فهو مخيف. أقصد الموت. لأنه يزور مرّة واحدة مفاجئة، ويسرق أعز ما يملك الإنسان "روحه".

قال السكران بعد أن تناول جرعة :

- يا ناس.. لماذا تتحدثون عن بعض الأمور الغامضة بنفس اللهجة التي تتحدثون بها عن أمر معلوم؟

و فوراً سأله صاحب الكتاب :

- ماذا تقصد؟

ردّ رأسه إلى الوراء وهو يجيب :

- هناك احتمال كبير أن يكون الموت لذيذاً، هذا استنتاج يُبنى على أساس أننا نجهل ما ينتاب الموتى أثناء وبعد موتهم.. من يدري؟

التفت صاحب الكتاب نحوه وعلى محيّاها علامات الاستغراب وسأله :

- هل أنت سكران حقاً؟

ثم مضيفاً:

- ذلك أن الفكرة نفسها مثيرة وقوية، وقد تنسف معظم أفكارنا المتوارثة عن الموت أيضاً.

قالت الفتاة التي أعانت السكران وهي تحرك حاجبيها بعد أن التمعت الفكرة في ذهنها على نحو آخر :

- قد لا يكون للموت أي وقع يمكن الشعور به، لا لذة ولا ألم، تماماً مثل الولادة، أليس هذا احتمالاً وارداً؟ هل من أحد هنا يتذكر ألماً أو لذة حين ولادته؟ حتى وجودنا لا ندركه دفعةً واحدةً، وإنما يحدث ذلك بشكلٍ تدريجي بمرور الوقت.

أضاف صاحب الكتاب وهو تحت تأثير هذه الأفكار والخواطر المثيرة :

- وبذلك يكون معظم ما توارثناه من قناعات حول الموت مجرد أباطيل طالما أنها محض معطيات بلا سند. وليس بعيداً أن يكون أكثر ما توارثناه أيضاً عن الحياة نفسها مجرد أكاذيب!

أضافت ذات الضفيرة :

- أو مجرد تأويلات لا تستند على أي دليل.

قال الراكب الأخير وكأنه يعيش حالات ذهنية يعجز عن الهروب منها :

- أنا مشتاق إليها، ولأنه ليس من سبيل إلى ملاقاتها فإن نفسي تهفو إلى النهاية برغبة تتضاعف مع كل يوم يمرّ.

أردف ورأسه يتحرك يمناً ويسرة :

- الوحدة صعبة، إنها زلزلة بلا قضبان.

سألت صاحبة المجلة وقد لاحظت لهجته المثيرة للشفقة قائلة :

- لا يُشفي لوعة الفراق إلا اللقاء، هل زوجتك بعيدة؟

لكنها استدركت بسرعة :

- لا أعرف لماذا افترضت أنك تتحدث عن زوجتك..

غير أنه أمّن على تأويلها قائلاً :

- إنها أبعد مما تتخيلين يا سيدتي.

- سنساعدك حتى تصل إليها.

قال مؤكداً :

- هذا مستحيل.

أجابت بنبرة ثابتة :

- لا شيء مستحيل.

قال تاركاً لرأسه أن يسقط على صدره :

- إنها ميّنة..

عمّ الصمت... كان الوقت بالنسبة للركاب بعد هذه الجملة القصيرة قد صار لحظات تشبه خطوات بطيئة على الجمر

مصحوبةً بضرورة عدم الصراخ أثناء المشي فوقها. لكن الفاتنة التي أعانت السكران قالت بعد برهة :

- ليس من دواء لألم فراق الموتى إلا النسيان، ابحتُ عن امرأة أخرى واستأنف حياتك.

وضع الشاب سيجارته في زاوية فمه وقال وهو يحرك يده دلالة النفي :

- مستحيل.. في كلامك تناقض مع الحقيقة، لأن كلمة النسيان هذه أكذوبة جميلة. الكثير من الكلمات تم إقحامها في اللغة دون أن يكون لها وجود في الواقع حقاً؟  
أمّن الراكب الأخير على هذه الملاحظة قائلاً :

- هذا صحيح.. فقد فشلت كل محاولاتي لأجل نسيانها.

قهقه السكران ثم لاذ بالصمت. غير أن صاحب الكتاب الذي بدأت تُلفته القفزات الذهنية لهذا الرجل سأله :

- وهل في كلام هذا البائس المسكين ما يثير الضحك :

تناول جرعتين وأجاب بعد أن مسح شفثيه بكمّ قميصه :

- ليس في كلامه ما يضحك طبعاً، إنه شأن بشري عامّ ولا يخصه وحده.

قالت الفتاة التي ساعدته على الركوب متسائلةً :

- وهو؟

أجاب بمكر :

- يبدو أن جسم الإنسان أذكى من عقله.

تساءل ذو الصوت الرعدي وهو يزار :

- وكيف ذلك؟ أفصح :

أجاب مرة أخرى بطريقة ماكرة وكأنه يكشف عن شيء ملفوف  
وسط طبقات من الأغلفة :

- جسم الإنسان لا يعرف ما هو الماضي أو الحاضر أو  
المستقبل، إنه يتعامل بمنطق المفيد وغير المفيد.. عكس  
عقله تماماً.

قال صاحب الكتاب وقد استثاره هذا الرجل الذي يحسبه فاقدا  
للتركيز بينما يلوح وكأنه أكثر اطلاعا منه :

- بمعنى؟

أزال غلافاً آخر عن فكرته قائلاً :

- نحن جميعاً نعرف أن الجسم يستقبل الطعام ويهضمه  
ويعزل كل ما هو مفيد ويوزعه على الأعضاء ثم يطرح  
ما تبقى خارجاً ليس لأنه غير مفيد فحسب، بل لأن إبقائه  
في الداخل سيشكل خطراً عليه. ونفس العملية يفعلها  
طوال الوقت مع الهواء، وكذلك مع السوائل.

قال صاحب الغليون باستخفاف :

- هذا يعرفه حتى أطفال المدارس.

ردّ صاحب الكتاب وقد غلبه الفضول :

- دعه يكمل من فضلك.. رجاءً :

واصل السكران وهو بيتسم دون أن يرفع رأسه :

- عقل الإنسان غبي بالمقارنة مع جسمه، لأنه يُبقي حتى على الأحداث المؤلمة والكارثية وعلى الصدمات وكل الأشياء غير المرغوبة ويطلق عليها اسما ودودا: "الذكريات"، في حين أنه كان من الضروري التخلص منها باستمرار، تماما مثلما يتخلص الجسم من القاذورات. ولذلك فالعقل البشري مريض على الدوام.

التفتَ صاحب الكتاب وهو يروز السكران بنظرات جديدة ثم عاد ليسأله نفس السؤال :

- هل أنت سكران حقاً؟

لم يُجب فوراً، بل تناول جرعة من قنينته بهدوء ثم قال وهو ينظر إلى صاحب الكتاب نظرة جانبية:

- حديثك يوقظ حتى الميت، كل جرعة أشربها يتبخر مفعولها بعد كل كلام يخرج من فمك، اللعنة.

قال الراكب الأخير بصوت خفيض:

- ولادة طفل من المحتمل أن تغير مشاعر أفراد عائلة عانت طويلا من العقم. أما موت فرد مميز، محبوب ولطيف، بشكل مباغت وسريع في سن العشرين، فحادث يرج بيادق اللعبة برمتها، عاصفة تنفخ أوراق اللعب عابثة بالحسابات والافتراضات.

انتبه السكران لما في هذا الكلام من التباس فقال معترضاً :

- زوجتك في العشرين وأنت في هذا السن؟ أليس هذا ظلماً؟  
كان من اللازم أن تموت أنت، لكن ماذا بوسع المرء فعله  
حيال القدر؟

ثم استدرك بلهجة مختلفة :

- أم أنها ماتت منذ مدة طويلة ولا تزال أنت تجترّ آلام  
الفراق كل هذه السنين؟

قالت صاحبة المجلة وهي تعيد إلى مسامع الركاب نفس جملتها  
السالفة :

- ليس هناك شيء مستحيل.

ولمّا لاحظت أن الجميع التفتّ نحوها أضافت مستعيدة فكرة  
اقتراح المساعدة :

- هذا السيد ماتت زوجته وهو مشتاق إليها، ماذا ننتظر؟  
أليس من واجبنا مساعدته ليلحق بها؟ أظن أن ما من شيء  
أروع من لقاء الأحبة.

حرك صاحب الغليون القلم بين أصابعه وقال :

- يجب أن يتعامل المرء مع أحداث ماضيه كما يتعامل مع  
الأواني الزجاجية المكسورة، فهو لا يحاول بتاتا إصلاحها  
لأنه يعرف مقدماً أن ذلك مستحيل ولذلك يرميها ويبحث  
عن أواني جديدة، يمكن تذكر تلك الأواني لكنها لا تصلح  
للمستقبل.

قالت المُسنّة :

- هذا صحيح لكن الفراق صعب.

أثارت هذه الجملة القصيرة الشابة الفاتنة فقالت :

- إن الحب أيها السادة يفقد كل المعاني المُدرّجة تحت عنوانه ما أن يصير بلا عذاب وانتظار وألم ورغبة وشوق. ثم ماذا يعني أن تنسى من تحب إذا فارق الحياة لتتخرط في اليوم التالي في علاقة حب جديدة دون تردد؟ إنه شبيه في هذه الحال بنسيان وجبة الإفطار حال امتلاء المائدة بوجبة الغداء. العلاقات الإنسانية أكبر من مجرد وليمة تنتهي بالشبع.. ولا يمكن تقبل مقارنتها بانكسار الأواني أو أي شيء من هذا القبيل.

وبدأ الجميع مرة أخرى :

- الحقّ أن الفراق مؤلم.

- إنه أشد من الموت.

- تقصدون فراق الأحبة طبعاً.

- الموت أرحم من بُعد الحبيب.

- الفراق وحش بمخالب سامّة.

قالت المرأة صاحبة الثياب ذات التخاريم :

- المثل يقول: "اللقاء بعد فراق طويل خير من ليلة الزفاف".

استلم صاحب الكتاب فحوى كلام المرأة فتوجه بنظراته إلى الركاب ثم إلى الراكب الأخير وقال:

- هيا بنا أيها السادة، الرجل يتحرّق للقاء حبيبته، هيا نرقه إليها ولأنه هذا الموضوع مرة وإلى الأبد. ماذا ترى؟ فالحاضرون هنا ينتظرون رغبتك ليتخذوا على ضوءها القرار النهائي.

قال السائق في نفسه: "يبدو أنهم يدفعونه إلى حتفه.. يتم هنا والآن تحضير هذا البأس ليصل بسرعة إلى نهايته. لكنه مُحصّن إلى حدّ ما ضد تأثير الكلام المنهمر من حوله، مازال خيط رهيف يربطه بالحياة على ما يبدو، إنه يأس بلا شك، غير أن مسألة الوجود تتوقف على شيء آخر أكبر حتى من الأمل نفسه، وتبقى مسألة الميل إلى العدم غير مرهونة على نحو نهائي بالقنوط". أضاف بعد أن توغلت هذه الفكرة في ذهنه: "ولذلك يجب أن لا تتأثر حياتي بمجمل ما يحدث أثناء العمل، كما يجب أن تكون أحلامي بالتفوق في مجالات أخرى، غير مرتبطة بشعوري بالتذمر نتيجة ما ألقاه من عنت وتعب وضجر من ممارستي لمهنة القيادة".

لم يجب الراكب الأخير، فهو نفسه لا يدري على وجه التحديد شيئاً عن هدفه، إنه يشعر أن كتلاً رمادية من الضباب تلقه من كل ناحية. إن عالمه موشكٌ على الانهيار، ولكن قلبه ما يزال ينبض، كما أن رثتيه ما تزالان تواصلان عملية التنفس التلقائية، بل إن أعضاءه كلها رغم الوهن والكآبة تتابع أعمالها المعتادة. عقله وحده يشتغل ضده، إنه مثل عدو لا يكلُّ من استدعاء الكثير من الأفكار المشوشة والمثيرة للاضطراب. ولطالما تساءل ما إذا كان فعلاً يتحكم في عملياته الذهنية بحيث

يرتكز عملها على الإرادة أم أن عقله يشتغل بتلقائية وحرية ولا ينتظر منه أية أوامر أو نواهي. هو يعرف أن للعقل كيانا خاصا على نحو ما، والدليل أنه يصنع خليطا من الأحداث أثناء النوم، إن له حياة أخرى يعيشها في الظلمة، ويتذكر الآن أنه سقط أثناء نومه أكثر من مرة في بئر ولكنه حين يرتطم بالقاع تحدث اليقظة فيجد أنه في فراشه.

قال صاحب الكتاب وهو يلتفت نحو الراكب الأخير الآن بكل جسمه سائلاً :

- سأسألك من جديد.. أحقا تريد أن تموت؟

أجاب هذه المرة دون تردد وكأنه كان ينتظر هذا السؤال بالذات:

- من يدري؟

ثم غمرت كيانه حالة من الصفاء فقال وكأنه يكشف سرّاً دفيناً لأعز صديق :

- حتى الآن، لم أعرف ولم أذق عبر عمري كله شيئاً اسمه الحب.. ستون سنة تبدو وكأنها ومضة برق.

هز كتفيه دلالة الحيرة وتابع :

- البعض يولد أعمى، والبعض أصمّاً، أنا ولدت بلا قلب، أعني بلا عاطفة، يهمني فقط إسكات الرغبات التي تنتابني. فحين أجوع، أتناول وجباتي بسرعة كما لو أنني أحشر الأشياء داخل كيس، وأتجرع المشروبات دلقاً

وصبا، وأمارس رغباتي الغريزية بفضاظة وفجاجة،  
بكيفية تشمئز منها حتى أشد الباغيات انحطاطا. وحين  
أسمع قصة حب فيها بكاء وشوق وحنين وربما جنون، لا  
أزيد عن تحريك شفتي استخفافا وامتعاضا.

تنفّس الصعداء وتابع بصوت متهدّج :

- لم أذق طعم الحب إلا عندما ماتت.

أسرّ المنقذ في ذات نفسه هذه الملاحظة وهو يتابع الحوار:  
"الكائن البشري غريب.. إنه لا يتمكن من الإدراك التام لقيمة  
أي شيء حتى يفقده، والأغرب أنه في أحيان كثيرة يواصل  
نفس الغباء مع أشيائه الحميمة فيفقدوها الواحد بعد الآخر حتى  
النهاية. فهذا المسكين لم يدرك قدر زوجته إلا بعدما توفيت،  
وهو الآن على وشك أن يفقد حياته".

التفت الراكب الأخير نحو الفتیان وتفرّس في عيون الفتيات  
ثم اعتدل وخاطب السائق :

- هل أنت متزوج أيها السائق؟

- ...

- لماذا لا تجيب؟

تدخلت ذات الضفيرة بلهجة استفزاز قائلّة :

- لماذا لم تفكر يا رجل في حالك بدل أن تسأل الآخرين عن  
أحوالهم المدنية؟ ألم يخطر ببالك مثلا، أن حياتك الجرداء،  
وهي بلا ريب كذلك كما وضحت بنفسك قبل قليل، تستحق

فعلا ما أنت مقدم عليه مما تفسره رغبتك في الموت؟ إن حياةً هي حياتك، ليست حقا جديرة بالاستمرار. عمرك ستون عاما.. إنها لحياة طويلة بالنظر إلى فراغها، وإنك يا صاحبي لذو نَفَس طويل في تجرع هذا الخواء يوما بعد آخر. ولأنك قررت إنهاء حياتك فذلك لأنك أخيرا أدركت أن لا ضرورة لهذا الخواء.. فهنئيا.. حقا، أقول لك وحرارة.. هنئيا. ولكن بعد ماذا؟ فلم يعد في الوقت متسع يا صاحبي.. خيبة الأمل قاسية، إنما لا أجد حقا ما يمنعني من إخبارك بالحقيقة، أتدري أنك طوال هذه السنوات الستين كنت نائما.. أو ربما ميّتا يتنفس ويتابع العيش تماما مثل خلية عمياء؟

قال وكأنه يهرول ويولول في عالم آخر :

- لو أن الميت يعرف ميعاد موته لكان آخر عمل يقوم به قبل أن يتهاوى هو إفراغ جيوبه.

تبادل الركاب النظر فيما بينهم ليداروا عدم فهم ما قيل، وغمزوا لبعضهم البعض. لكن الرجل شعر فجأة بأن عزة نفسه قد أحدثت فيها هذه الشابة خدوشا، لذا ارتأى أن يضعها عند حدها فقال بلهجة واعظة :

- حذار من فلتات اللسان.. لو تزوجتُ في شبابي لصار لي أبناء في مثل عمرك وربما أكبر منك.

هَبَّ صاحب الكتاب على نحو مباغت من مكانه وصاح في الموجودين ويده تُلَوِّح بالكتاب قائلاً :

- أيها السّادة.. لقد لاحظنا جميعاً أن كلام هذا الرجل  
المسكين دعوة واضحة لتقديم يد المساعدة، فماذا ننتظر  
بحق السماء؟

أرسلَ نظرة خاصة إلى ذي الصوت الرعدي ثم أضاف بلهجة  
تحريضية :

- هيا يا رجال.. لقد طُفح الكيل!

وفي لحظة كالبرق وبينما السائق يعيش إحدى حالات الغم  
والكرب، ودون أن يعرف ماذا سيحدث أو كيف تدور الأفكار  
في رأس صاحب الكتاب الذي يحثُّ الرجال على النهوض،  
وليس لديه أدنى فكرة عن كيفية استجابتهم لأوامره التالية أثناء  
عملية التهيج هذه.. في هذه اللحظة المارقة انتفض الرجال..  
عدا المنقذ وصاحب الهسيس، وأخذوا الراكب الأخير من يديه  
ومن ثيابه وجرجروه نحو باب الحافلة فعمّت الفوضى، دبّ  
خوف مختلف في قلب السائق لم يشعر به من قبل وجحظت  
عيناه، وانتشر في الحافلة صراخ النسوة عدا المرأة المُسنّة التي  
تقول بصوت مرتفع يشبه أذان الصلاة ويدها ترتفعان فلاحتُ  
وهي تتحرك بتلك الطريقة مثل فزاعة مهترئة، وكان صوتها  
أقرب إلى الصراخ :

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنا لله وإنا إليه راجعون. الدوام  
لله، كل من عليها فان.. كل من عليها فان.

كان الراكب الأخير مستسلماً برخاوة ولا تتدّ عنه أي نأمة تدل على المقاومة أو الرفض، وعلى وجهه ابتسامة غريبة تجوبُ قسماته وكأنه راضٍ تمام الرّضى عما يحدث.

وعندما وقفوا أمام الباب رفعوه كلياً عن أرضية الحافلة وبدأوا يحركون جسمه جيئةً وذهاباً استعداداً لرميه، ثم صرخ ذو الصوت الرعدي وهو ينظر جهة السائق الذي تحولت سمات وجهه فصار لونه مثل تركيبة غريبة هي خليط من الأصفر الكامد واللون الترابي والرمادي ممزوجة كلها بأخلاق الصديد والمخاط وبول البغال المسعورة :

- توقّف أيها السائق وافتح الباب حالاً.

وبصوتٍ أشدّ وضوحاً، وكان أشبه بتجميعية متنافرة من أصوات الوحوش الجائعة زمجر :

- فوراً.

ومن فرط الخوف والتوتر داس السائق على الفرامل بقوة فتوقّفت الحافلة على نحوٍ حادّ ومباغت فانجرفت أجساد القاعدين إلى الأمام. أما الذين يحملون الراكب الأخير استعداداً لرميه فقد سقطوا جميعاً على صفيح الحافلة، بينما تهاوت المرأة المُسنّة التي كانت واقفة وتولول في انحرافٍ حادّ نحو اليسار قليلاً ممّا سبّب في اصطدام أنفها بحافة النافذة فسال الدم. ومن غير وعي منها وربما بسبب الدوخة وشدة الصدمة والألم الناجم عنها فقد مدّت يدها نحو وجهها فغطّى الدم كفّها، ولأنّ جبينها يتفصّد عرقاً فقد مرّرت يدها المغطاة بالدم على

جبينها ثم على مجموع وجهها فتصبّغ وصار لها وهي جاحظة العينين منظر غريب، وحين رآها الراكب الأخير بتلك الهيئة من مكانه على الصفيح وحوله الرجال الذين لا يزالون تحت وطأة الذهول فقد قهقهة مثل سِكِّير، واستمرّ يضحك هكذا حتى ارتمى جذعه إلى الوراء وشرع يتمرّغ، فجاراه الرجال من حوله ثم جلّلت الحافلة وارتجت أركانها حين ضجّ الجميع بالضحك، ومن الغريب أن السائق نفسه انخرط هو الآخر في القهقهة حتى دمعَتْ عيناه. وحين هدأت موجة هذه المهزلة المُرعبة وبعد أن عاد الجميع إلى أماكنهم وقد ساعد بعضهم بعضاً، فقد قال السكران بعد أن تنحح وهو يبتسم ابتسامة صافية :

- ما رأيكم أن نشربَ نخباً خاصاً بهذه المناسبة السعيدة والاستثنائية؟

نظر إلى الركاب بطريقة خاصة وأضاف مبتهجاً بينما عيناه تلمعان :

- أوكد لكم.. إنها لحظة فارقة أيها الإخوة. لقد ضحك الجميع حدّ التخمة، حتى السائق نفسه وكذا هذه المرأة التي انكسر أنفها. ثم بربكم! من كان يظن أن هذا الرجل الذي نحسبه أكثرنا يأساً هو الذي ضحك أولاً وبشكل هستيري، بل دفعتْ ضحكته الجميع إلى هذه المسرّة التي لا تزال تحت تأثيرها حتى الآن؟ ألا يستحق الأمر نخباً؟ أنا أقول بلى.

استجاب ذو الصوت الرعدي وذو الندبة للنخب بينما أخذ الباقون يتبادلون النظرات، ثم انخرطوا كلهم في حوارات ثنائية. وبعد مرور بضع دقائق بدأت أصواتهم في الخفوت على نحو تنازلي كأنها صوت مذياع يتم تخفيضه رويدا حتى اختفى تماما. ولم يعد السائق يسمع شيئا. عمّ الصمت الحافلة وكأنها فارغة. فداس على المحرك بهدوء شديد ودارت العجلات بليونة، وفي هذه اللحظة غرق في خواطره، وشرع يستحضر ما اخترنته ذاكرته ثم قال لنفسه: "طوال حياتي لم أعهد أن تدور الحوارات بين الناس بمثل هذا الوضوح والانفتاح والصراحة التي تصل أحيانا حدّ الميوعة وعدم الاكتراث، دون أن أغفل عدم اتساقها أحيانا، حتى أن النقاش بلغ حد الاحتدام أكثر من مرة. لا أتذكر أن الكلام بهذه الطريقة يطول إلا ويصل المتحاورون إلى الطريق المسدود، ثم إلى تبادل الشتائم، وربما الاشتباك الذي قد يبلغ حدود العراك وسيلان الدماء وحضور الشرطة".

كانت صاحبة الملابس المزركشة قد أخرجها ما حدث منذ قليل عن طورها فبدأت تتخيل رغماً عنها حال الراكب الأخير بعد رميه بتلك الطريقة من باب الحافلة. واستنتجت أنه سيكون أعجوبة أن يبقى على قيد الحياة لأن الحافلة تسير بسرعة كافية لأن يتعرض جسمه للتدحرج الطويل، وهذا سيجعل عظامه مثل أخشاب مهشمة، أما رأسه فسيصير لا محالة كتلة غريبة ومثيرة للهلع والغثيان. وفي هذا المكان الخالي سيتحلل جسده وتفوح منه الروائح المثيرة لحواس الحيوانات والهوام. باغتتها

وخزة راعشة فانتبّهت من سورة الخيالات البغيضة وطرحت  
رغماً عنها هذا السؤال :

- كيف يتحلل الجسد بعد الموت.. أعني مراحل العملية؟

هكذا تساءلت فيما كانت يداها تفتحان كيسا ورقيا موشى  
بتخاريم جميلة، وأفرغت ما بداخله من قطع الحلوى، ثم  
شرعت توزع على الجميع بالتساوي.. أفرغ صاحب السجارة  
جيوبه، ثم وقف وبدأ هو الآخر يعطي كل واحد قدراً من الفواكه  
المجففة. التهم صاحب الكتاب حفنة وتمطق عدة مرات ثم  
أجاب :

- لا أدري إن كان أحد يعرف المراحل بالتدقيق، إذ يحتاج  
الأمر إلى وقت على ما أعتقد، وخلال هذه المدة، من  
يستطيع الجلوس جنب جثة في طور التحلل ليسجل هذه  
المراحل دون أن يموت من التقرز والغثيان والقيء..  
عذرا أيها الإخوة، فهذا الحديث يتناقض تماما مع تناول  
الطعام. حتى السكر سيصير مرّاً يا سادة.

أكدت المرأة صاحبة المجلة على كلامه قائلة :

- هذا صحيح.

قالت ذلك ثم أضافت :

- أعتقد أن الإنسان مغلف بقشرة لطيفة فوقها تفاصيل  
خارجية جميلة، لكن داخله يبعث على التقرز حتى وهو

حي. الملامح الظاهرية لجسم الإنسان مذهشة، أما  
الداخل،؟، إنا لله يا أخي.. إنا لله.

صاحت السيدة صاحبة الثياب المخرّمة وهي تتمطق :

- أنت يا صاحب الكتاب، يبدو أنك مثقف، الذين يقرأون  
الكتب يعرفون الكثير من الأشياء على ما أعتقد، هل لديك  
أية أفكار أو معلومات إضافية؟

التفت نحوها، إنه يعجز عن مقاومة هذه الحركة وهو يدرك  
ذلك جيداً، بل لم يعد يحاول مقاومتها بعد أن فشل مرات كثيرة،  
إذ كلما اهتزت حواسه بتلك الطريقة، إلا وتحرك بألية نحو  
الصوت أو الملامح أو الشكل أو أي شيء أنثوي مثير.. كانت  
امرأة في نحو الخمسين وإن بدت أصغر من ذلك، ربما بفعل  
الاستهتار والقوة الباديين في نظراتها الاقتحامية، عاد إلى  
وضعه الأول وقال :

- عن أي شيء بالتحديد يا سيدتي؟ عن الكتب؟ أم عن الموت  
ومراحل تحلل الجسد؟

- عن كل هذا طبعاً. نحن في رحلة، وأعتقد أن من الجيد أن  
لا يمر الوقت هدرًا بينما في وسعنا أن نستفيد، طالما أن  
بيننا حامل أسفار!

أعاد النظر إليها ثم ودون أن يهتم بالجملة الأخيرة التي شمّ من  
خلالها رائحة التعريض أجاب :

- يرتخي اللحم وينماع.. فينخلق الدود.. ثم ينبعج وينفرط،  
وأخيرا يدفر.. ويبدأ في التلاشي، حتى تبقى العظام، فتبدأ  
مرحلة أخرى..

ثم رفع الكتاب عاليا وأضاف دون أن يحفل بالهمة التي  
سرت وراءه :

- أما قراءة الكتب يا سيدتي، فهي في حد ذاتها نعمة وامتعة،  
غير أن الكتب مثلها مثل أي شيء، قد تفيد المرء وقد  
تضره.. في عموم الأحوال يمكن القول إن المعرفة تعين  
الإنسان على الفهم.. فهم ذاته والعالم من حوله، وبالتالي  
يكتسب مع الوقت أدوات فائقة الفعالية للتحكم في مساره  
وخياراته وهو يفلح في أكثرها. أعني أنه يتحمل مسؤولية  
خياراته كاملة. الكتب أيها السادة هي ثورة حقيقية..  
فبالمقارنة مع كل ما توصل إليه الإنسان حتى الآن إلى  
اختراعه واكتشافه، ليس بينها ما يضاهي الحرف، ثم  
الكتاب.

نظر إلى السائق من خلال المرآة فالتقت نظراتهما. حرّك  
الصفحات بواسطة إبهامه فتوالت بسرعة بين يديه، فتلألأت  
الحروف السوداء وسط الكتاب، ثم أضاف :

- الحرف خطوة نحو مجاهيل الذات وكذلك صوب  
غموض العالم، إنما، وفي مطلق الأحوال، لم يتجاوز  
الأمر كله كونه عينة صغيرة، ليس للحقيقة كلها، بل لوجه  
من وجوهها المتعددة فحسب.. الإنسان أيها السادة لم يبلغ

حتى الآن الحد الذي يؤهله لامتلاك حرите الكاملة،  
مادامت تموج في داخله أفكار ومشاعر ووساوس يعجز  
عن فهمها أو التحكم فيها، وإنما يكتفي بمداراتها لا  
إدارتها.. هل تُدركون ماذا أعني؟

التقتُ نظراته من جديد بعيني السائق فحرك صفحات الكتاب  
كما في المرة السابقة ولكن بشكل معكوس فلاحَت الصفحات  
بيضاء فارغة تماما لكتاب بلا عنوان، فدهش السائق وانتابه  
غمٌّ شديد، وردّد في داخله : "بسم الله الرحمن الرحيم".

حرك الراكب الأخير رأسه يمينا ويسرة وقال :

- لا تبحثوا عن الحقيقة داخل الكتب، لأنها مُتخمة بضلال  
أصحابها. وهذا الرجل الذي يُشهر أمام أعيننا كتابا منذ  
بداية الرحلة إنما هو مُدّع وكذاب.

وكان السكران أيقظته ملاحظة الراكب الأخير، هذه الملاحظة  
التي تفرّعت في ذهنه فانهمر مثل الشلال قائلاً :

- هذه فكرة عميقة. بل ويُسمّون ذلك الضلال فلسفة. فلتذهب  
الفلسفة إلى الجحيم إذن يا رجل! ما هذا؟ الفلسفة! إنها  
جنون مكتوب ومنظم. أغلب الفلاسفة إنما يتمرنون على  
مدار الأيام على اللعب فوق نار الفكر وأكثرهم يحترقون.  
أتدري؟ لا أحد يرتشف من معين السعادة ويصير  
فيلسوفاً.. مستحيل. إذا كانت الحاجة أم الاختراع، فالشقاء  
أبو الفلسفة.. ذكريات طفولة قاسية أو ذكرى صدمة  
عاطفية هي ما يدفع الإنسان لأن يصير كائنا مغتربا. وهو

يشعر أنه في العمق يكره اغترابه. ومن المحتمل أن الشعور بالعظمة والتفرد مجرد صرخات أخيرة لإبلاغ الآخرين بأنه يستحق الحب والاحترام والاهتمام، فيصل الفيلسوف المغترب والمرفوض طفلاً لقيطاً ومهملاً يبحث عن المأوى العاطفي متوسلاً الصراخ العالي الذي يدفع الناس بعيداً لئلا تتأذى آذانهم. إن كل ما يوحى به العالم من حولك ليس له أي وجه من الحقيقة ولا يستند على أساس متين. ما تراه من تدافع للموجودات حري به أن يشغل عقلك لا قلبك. وأن يوجب أفكارك بينما تبقى مشاعرك خامدة. لن تستوعب وتفهم ما تراه إلا بهذه الكيفية. وربما تستغرب يا سيدي إذا اطلعت على نهايات بعض المفكرين والفلاسفة لأنها صادمة وتدعو إلى الشك. ذلك أن كسب الرهان يحتاج جنب الإمكانيات العقلية الاستثنائية إلى قدرات شعورية جبارة، تقف لصد هجمات الواقع غير المتوقعة والصادمة حتى لأشد العقول يقظة. بعضهم عاش حياة متقلبة وملبئة بالاضطرابات والتقلبات حتى وفاته. وبعضهم جن جنونا حقيقياً وتشرد مثل أي إنسان ضائع. ومنهم من انتحر. وهناك من ارتكب جرائم ينتفض الإنسان العادي لمجرد سماعها. أما الشذوذ وترك الأسرة وبيت الزوجية والأطفال...

تناول جرعة فاض بعضها على ذقنه وتسرب عبر العنق حتى بلل قميصه وتابع وهو يبتسم بجانب وجهه :

- أما الكحول والمخدرات..! من المحتمل أن تذرف الدموع وأنت تقرأ قصة أو رواية لأحد الكتاب.. أما إذا اطلعت على بعض تفاصيل حياته فليس من المستبعد أن تندم على تلك الدمعات. من الحكمة ونحن نقرأ الكتب أن نعرف حياة كتابها قبل ذلك. كما يتعين أن يعرف من هو مُقبل على الزواج شريك حياته قبل قرار الشراكة. لأن فيروسات الفكر أشد فتكا من فيروسات الطبيعة. وحين نكتسب المناعة الكافية أمكننا بعد معرفة حياة مفكر مجنون أو فيلسوف منتحر أو روائي شاذ، أن نتعامل مع ميراثه الإبداعي بذكاء حتى لا نتورط في حمل بعض إرثه على أنه قناعة. إن كل الصراخ الذي يحتجزه هؤلاء جراء أحداث بعينها واستنتاجات بذاتها، يسفحونه شلالات سوداء على الورق فإذا هو مدعوماً بالمنطق جملٌ غاية في الإقناع والتأثير. وليس هذا الإقناع شبيها بأي شيء أكثر من خطاب رجل دين متطرف حين يقنع شابا يتأجج غضبا بأنه سيدخل الجنة فوراً بعد أن يفجر نفسه وسط مبنى عام يوجد داخله أناس لا يعرف من هم ولا كيف يفكرون أو ماذا يعملون. أقول لك دون تردد إن من الأصوب لتلافي انهيار المجتمع الإنساني في الحقب القادمة أن يكون هناك فريق في كل بلد من مُخبري الثقافة والعقيدة الساهرين على غربلة المعرفة وتصنيفها ومعرفة مصادرها، حتى تدرك الأجيال القادمة مدى تنوع ما خَبِرَهُ العالم من تجارب فتتسلح أعماق الأفراد منذ الصغر

بترسانة نفسية قوية وحصينة مضادة لأوبئة التطرف مهما  
صَدَرَ عن أصحابه من إبداع وعبقرية.

انبهر صاحب الكتاب أكثر من ذي قبل بهذا الرجل حتى ظن  
كما ظن صاحب السجارة قبل ذلك بأنه لا يشرب إلا الماء،  
ولولا أنه تناول تلك البيرة قبل قليل لانتقل إلى جواره ليعرف  
الحقيقة. كما أن الرجل رغم أنه سكير وذو مظهر لا يوحي إلا  
بالتشرد والإهمال، إلا أنه من الجليّ كونه مثقفاً إلى حدّ مدهش.

جمع الراكب الأخير قطع الحلوى والترمس وفتح النافذة ثم  
رمى كل شيء خارجاً. ترك رأسه يرتخي حتى التصق ذقنه  
بصدره وقال وكأنه يواصل حواراً بينه وبين نفسه :

- داخل كل واحد منا قارورة قديمة وفسادة، شخصياً أعترف  
بذلك. لا يوجد إنسان مصنوع من مواد عطرة خالصة،  
نحن مزيج من العطن  
والعبير.

ثم واصل بلهجة غريبة وهو ينظر إلى الأعلى متأثراً بالحوار  
الدائر حول الفناء :

- يا ربي كم هو مثير هذا الموت، هذا الانفصال بين ما كان  
متلاحماً ومتصلاً لسنوات وسنوات. آه.. لشدّ ما أشعر  
بشوق عارم لتلك الاختلاجة، تلك الرعشات الأخيرة التي  
يحدثها الجسد حين يغادره تيار الحياة، يشبه آنذاك كيساً  
يُفرغ من محتوياته. حركة المقصلة المندفعة نحو الرقاب  
دون أن يعترضها شيء، السرعة المرعبة لانطلاق

الرصاص، الشرخ العميق للسكين وهي تنغرز وسط القلب، ثم تلك الأفكار المفزعة التي تُثير الفوضى في الوجدان المُتعب وتنتهي أحياناً بالصمت المفاجئ حين تهمد كل العمليات في جسم الإنسان فيحدث الموت، دون مقصلة ولا رصاص ولا سكين... أشعر برعدة وأنا أفكر في ذلك، لكني لا أخفي رغبة غامضة وملحاحة في فهم كيفية حدوث خروج الروح وهي تترك الجسد ليتهاوى دونها، ويسقط مثل بالون غادره الهواء.

هنا صرخ السائق بوحشية! لم يعد يستطيع لملمة الشتات الذهني الذي يُسببه هذا الحوار الجحيمي الدائر بين الركاب. أغلب الظن أن المسكين غلبه الهلع جراء الحديث المتشعب والمستمر عن الموت والجنون ومرادفاتهما. لقد فقد السيطرة على الحافلة أكثر من مرة حين اجتاحه الخوف. والآن ها هو قد مر بتجربة مفزعة، لقد كان على قيد أنملة من حادث وشيك، ولذلك صرخ وأخذ يحتج وقد تهدج صوته :

- لم لا تذهبون جميعاً نحو الهاوية.. من أنتم؟ ماذا تريدون؟ لم يلتفت أحد إلى كلامه وإن التزموا الصمت حين كان يتحدث ويزمجر.. وبدلاً عن ذلك تبادلوا جميعاً نظرات فارغة.. ثم غمز بعضهم لبعض واستأنفوا الحوار.

كانوا يتبادلون النقاش ببرود وكأنهم يتحدثون عن المشاغل اليومية الرتيبة والباعثة على الملل وليس على أشد

الموضوعات إثارة للغموض والغرابة. قال صاحب الكتاب ردا على الراكب الأخير متجاهلا تماماً غضب السائق :

- بغض الطرف عن كلامكما حول الكتب وأصحاب الكتب، هناك في الحقيقة عشرات الأساليب للموت، وهناك أسلوبان فقط للحياة، الولادة كبدائية ، والفرح الناتج من التقبل لأجل الاستمرار. فماذا تختار يا وجه الشؤم. سأسميك هكذا طوال الرحلة، وجه الشؤم.. ولتذهب إلى الشيطان.

هَبَّ الشاب صاحب السيجارة قائلاً وقد شجعه ما سمع:

- أعتقد أننا، على هذا الأساس وتماشيا مع ما سمعنا الآن من آراء واقتراحات، أن بإمكاننا مساعدة الرجل. فإذا اختار تغيير رأيه فيما يخص الوجود، ومالت نفسه لحب الحياة من جديد، وقرر تاليا مواصلة مشوار أيامه، فَبِهَا وَنِعْمَت يا إخوتي، وهي خطوة لا شك فيها من رحابة الصدر بقدر ما فيها من حب المغامرة.. شيء طيب ولا ريب. أما إذا ما استمر في جفائه إزاء حياته، وواصل كره نفسه ومال ميلا شديدا إلى الموت والفناء والنهاية والعياذ بالله، فواجبنا أيضا مساعدته وتقديم العون كل العون له. عليه فقط أن يختار بين عشرات الوسائل التي أشار إليها السيد، ونحن نتكفل بالباقي.

سأل ذو الصوت الرعدي :

- فليذكر صاحبنا هذه الطرق أو الوسائل. إذ في اعتقادي أن هذا الرجل لم يعد في وسعه أن يختار الحياة، فجسمه هزيل ونفسه مُحطّمة.

أضاف السكران ورأسه يتحرك بليوننة في كل اتجاه:

- كما أنه طاعن في السنّ، أو مُسنّ في الطعن.

ورغم إعجاب صاحب الكتاب بالسكران إلا أنه قال بصوت خفيض وهو يبتسم :

- ألف لعنة.

ثم أضاف وهو يداعب الصفحات قائلاً :

- في وسعه الآن بالذات أن يرمي نفسه خارج الحافلة، هكذا لن يكون في حاجة لمساعدة أحد وسيُعفينا من بذل أي جهد. في أغلب الأحوال سيرتطم رأسه بأي شيء فيسقط جثة هامدة، أما إذا كان جباناً ويحتاج إلى دفعة كفّ فبإمكاننا أن نخنقه. إذا توفرت لدى أحد سكين يمكن لأي متطوع بيننا أن يُسدّد طعنة إلى قلبه. أي شيء ثقيل أيضاً سيفي بالغرض.. ضربة موزونة على الرأس وينتهي الأمر.. على أي حال هناك ما هو أسهل من هذا كله، وهناك ما هو أقسى.. المسألة تتوقف عليه، اختر موتك يا وجه الشؤم!

قال المنقذ في سرّه وهو يلاحظ ويتابع الانحدار المتسارع لحالة الراكب الأخير : "الأمواج لم تتوقف يوماً عن صفع الشاطئ،

لذلك حوّلت الكثير من الصخور الى رمل، وذلك بفعل الاستمرار المتواصل الذي يُعدّ قوةً رهيبَةً في حدّ ذاته. وهذا الرجل يتفتّت، وهو أمر لا تخطئه العين، وقريباً سيتحول إلى رماد".

قال الشاب الجالس جنب الراكب الأخير وهو يلتفت نحوه سائلاً :

- ماذا تختار يا صديقي، لم يذكر السيد الطلقّ الناري، على جدار في غرفة والذي الخاصة هناك بندقية صيد معلقة، أعني أن باستطاعتي أن آخذها وأقتلك حتى دون أن تعرف، فلا تعيش رعب معرفة مسبقه بقرب نهايتك، حتى أني قد أنهى أيامك وأنت تأكل مثلاً، أو وأنت تتنزّه، أو أثناء احتساء فنجان قهوة عند المساء بينما يسرح خيالك في أحلام اليقظة، أو وأنت تأخذ قيلولة، هذه أفضل على ما يبدو. ستواصل قيلولتك حتى يوم البعث، ما قولك؟

قال المنقذ في نفسه: "لابد من قسط ولو قليل من الجنون لمواصلة العيش. كما لابد من قسط وافر من الغباء ليتخذ المرء قراراً بالانتحار، لأن الألم والعجز واليأس مجرد حالات طارئة ومحكومة بالانصرام، وبالتالي فهي ليست دوافع لقتل الذات بقدر ما هي وضعيات يخطئ الغبي في تأويلها، ويبدو أن هذا الرجل يسير فوق جسر رخو، فإذا لم يتراجع في الوقت المناسب فمن المحتمل أن ينهار كل شيء

تحت قدميه في لمح البصر. إن نهايته وشيكة خاصة وأنه محاط بهؤلاء".

أما الراكب الأخير فلم يُجب.. عمّ الصمت برهة، فلا يُسمع إلا هدير الحافلة، وهسهسة جليس صاحب الكتاب، وصوت فم صاحب الصوت الرعدي وهو يتمطق ويتلمظ ويتجشأ. وفجأة بدأ الراكب الأخير يضحك.. ثم تعالت ضحكته وبدأ يقهقه، وجلجل خوار ذي الصوت الرعدي وقد أصابته عدوى الضحك، ثم تعالت القهقهات...

ارتفع وقع نبض السائق فصاح غاضباً :

- أتمنى من كل قلبي أن تُقطع ألسنتكم يا أوباش، أو تصابوا بعاهة تفقدكم القدرة على الكلام.

قالت العجوز بعد أن هدأت نوبة الضحك :

- وما نيل المطالب بالتمني...

قال الشاب صاحب السيجارة بنفس اللهجة :

- أكيد أيتها الجدّة. يبدو أن السائق لا يعرف أن أيام الحالمين يمضي معظمها في التمني.. أما الذين يعملون فيتحركون طوال الوقت.

ثم نظر إلى السائق وقال بصوت عال :

- أنت أيها السائق، عليك منذ الآن، أن تلتزم حدودك، وتركز تركيزاً تاماً على القيادة. أرواح الناس أمانة بين يديك يا رجل.

نظر السائق إلى الشاب من خلال المرآة العاكسة لخلفية الحافلة ثم قال :

- ألا تدري أيها الفتى أن التدخين ممنوع هنا وأن الكلام مع السائق يضع الجميع أمام احتمال وقوع حادث؟ ذلك أن انعدام الهدوء يشنت الانتباه، وهو ما تحدثونه داخل هذه الحافلة، وكأن سلامتكم ليست واردة، لذلك أرى، واسمحوا لي أن أعبر هكذا، أرى أن وصفكم بالأطفال أقل ما يمكن قوله، وأن هذا الرجل الذي يريد الموت، ويخفي ربما رغبة انتحارية في داخله، لستم والحال هذه، أفضل منه في مطلق الأحوال، هه.. ما رأيك أيها الفتى، أشعر بالاحتدام الآن.. وهذا يشنت انتباهي، ما رأيكم جميعاً أيها السادة العقلاء، أيها الناضجون؟ إن كلامكم به قدر كبير من الإثارة والغرابة، وهو في هذه الحالة حتما سيبدد انتباه أي سائق مهما كان ماهراً ويخرجه عن طوره. فإذا ما وصل ذهنه إلى حالة من عدم التركيز، فماذا سيحدث أيها الأغبياء؟

أضف بحدة وهو ينزل بقبضته على المقود :

- كارثة حقيقية.. أليس كذلك؟ ها.. ومن السبب في رأيكم؟ الجواب هو أنتم، وماذا يمكن استنتاجه من المسألة برمتها أيها السيدات والسادة الأغبياء؟ لا تجيبوا.. لا. أنا سوف أخبركم وبكلمات محددة.. الاستنتاج هو أنكم أيضاً تُضمرون جميعاً كل واحد على حدة حالة من التوق

للانتحار والموت، ولكنكم أيضا مثل هذا الرجل الغريب تريدون أن يحدث ذلك فجأة ودون أن يبدو الأمر وكأنه حدث بقصد مسبق، أكثر المغامرين يخفون هذا النزوع في مكن عميق داخل أعماقهم، ولكنكم لستم لا مغامرين ولا أي شيء من هذا القبيل، أنتم مجرد حثالة، رعا، مشردين، بلهاء يبحثون من مصيدة تهشم أعناقهم. طز فيكم.

التفت الشاب نحو ذات الضفيرة ثم أفرد ذراعيه مثل راهب يلقي موعظة وقال :

- ها، أظن أنه على حق.. هذا السائق وضع يده على المسألة.. ما رأيكم؟

تابع السائق قبل أن يتكلم أحد قائلاً :

- أنا أسوق هذه الحافلة منذ سبع سنوات ولم أسمع قبل الآن حوارا بمثل هذه الغرابة بين الركاب. دعونا نصل في سلام أيها السادة. ثم بعد أن تغادروا هذه الحافلة يمكن لكل واحد منكم أن يهشم نفسه بالطريقة التي تعجبه. اللعنة عليكم جميعاً!

كانت لافتة مستطيلة معلقة فوق رأس السائق إلى اليمين مكتوب عليها : "لأجل سلامتكم لا تتحدثوا مع السائق". ران الصمت على الجميع وكأنهم صُدموا بما لم يتوقعوا سماعه، كما لو أن كلام السائق مرق إلى دواخلهم ومزق ستارا ثم نبش خفايا كانت مكظومة. قال بصوت أقل توترا وكأنه اكتشف تسرعه

واندفاعه، الشيء الذي كان قبل قليل يؤكد على نفسه ويذكرها  
بضرورة تجنبه :

- دعونا نصل في سلام..

لكن الركاب بدأوا حوارهم مجدداً حين نطق رجل غريب  
الملامح منكوش الشعر لم يتكلم قبل الآن قائلاً :

- ومن قال إننا نريد الوصول في سلام؟

وانخرطوا من جديد في الحوار :

- دعوه يقوم بعمله.

- لو أنه يتقن القيادة حقاً لما اهتم بشيء عداها.

- انظروا يا سادة.. يبدو أنه لا يعرف دور المرايا التي  
تعكس ما يوجد وراءه، فهو لا يستعملها على نحو جيد.

- بل من الواضح أنها تضره، فلا يكاد ينظر إليها حتى تبدأ  
الحافلة في الالتواء، إنه يعرض حياته وحياة الركاب  
للخطر.

- هذا صحيح.

- إنه سائق بلا دُرْبَة.

اعترت السائق رجفةً باردةً أحسّ بها وهي تخترق جسمه  
بسرعة، بدأت من أصابع قدميه وانفجرت وسط رأسه فسال  
العرق على جبينه، بينما شعر بكفّيه تنزلقان حول المقود.

كان صاحب الكتاب مستغرقاً في التفكير وقد استبد به شك  
غامض وهو يستحضر سقوط الراكب الأخير الذي كان وشيكاً،

فقد كان خالياً فعلاً من أي حركة تتم عن كونه خائفاً من الارتطام عندما تداعى، لأنه لم يحاول التشبث بأي شيء ولم يصدر عنه أي صوت يُنم عن الخوف من السقوط، كما أنه كان مسترخياً وراضياً والابتسامة على محياه عندما همّ الرجال برميّه خارج الحافلة. ولذلك قال وهو يلتفتُ صوبه متسائلاً :

- أحقا تشعر بالاستياء من إنقاذك من السقوط؟ وبالتالي يكون هذا الرجل الذي تصدّى ضد سقوطك الآن عدواً مقبلاً في نظرك؟ ها.. لماذا لا تجيب يا وجه الشؤم؟ لقد سبّب ركوبك هذه الحافلة مقداراً من التوتر والاضطراب تستحق بسببه وصفك بشتى النعوت الكريهة، حتى السائق المسكين سبّب له توتراً لا مزيد عليه، اللعنة. الآن نريد جواباً شافياً.. هيا، هل أنتم معي أيها الإخوة؟

شعر السائق بهدوء موارب عندما تحدث صاحب الكتاب، بينما أجاب الراكب الأخير باستهتار :

- افتح كتابك واقراء، لن أردّ عليك. لن أصفك بالمغفل. لن أفعل ذلك.. مع علمي أن بعض الذين يحملون الكتب هم فعلاً مغفلون ويعتقدون أنهم أذكىاء. علينا جميعاً أن نؤمن أن المظاهر خداعة، أم أنني مخطئ؟ وللتذكير.. ما قاله هذا السكّير عن حال بعض المثقفين صحيح تماماً. تعتقد أن المعرفة حكر على من يحمل كتاباً في الذهاب والإياب. يوجد من لا يحمل أي كتاب عبر تنقلاته، ومع ذلك قد

يكون أكثر منك اطلاعا وأوسع معرفة وأعمق إدراكا في الواقع.

ودون أن يظهر على صاحب الكتاب أنه تأثر بسخرية الراكب الأخير قال بلهجة هادئة :

- أنت لست وحدك أبداً، الظن بأنك بعيد حتى وأنت بمفردك فوق قمة جبل مثلاً هو في الحقيقة أمر في غاية الغباء، وفي العمق عندما تتعمد الابتعاد فهذا يمنحك الوحدة الجسدية، وتفعل ذلك لتجنب الضوضاء المستمرة التي يحدثها الآخرون حين تبلغ حدا يجعلك تشعر بالمرض والألم والحصار. العالم يصير صغيرا وضيقا عندما يقتحم ما بينك وبين ثيابك، لكنك لا تستطيع في الواقع الانفصال عنه وأنت تبتعد، إنه عالق بكل شيء قريب منك.. فهو موجود في ذاكرتك، داخل عالمك الخاص، في مسام جلدك، في خيالاتك الأشد غرابة، يمشي مع خطواتك، يرافق حركات يديك وأنت تضع اللقمة في فمك، كل هذا وأنت بعيد جدا. لكن الحياة كانت، ولا تزال، وستظل رائعة وفاتنة، ولا يتجرأ على فراقها.. اغتراباً أو جنوناً أو انتحاراً إلا كل الذين بلغوا الدركات الأشد انخفاضاً من الغباء، حيث لم يعد بوسعهم رؤية أي ثغرة تنفذ منها خصلة نور. فهل وصلت إلى القاع فعلاً يا هذا؟

أرسل السكران نظرة استخفاف إلى الراكب الأخير وأضاف بامتعاض وهو يُلَوِّح بيده تأييداً :

- عين العقل يا أستاذ.. لكن من يستطيع إقناع الذبابة بأنها  
تقف فوق القذارة؟

انتفض الراكب الأخير وهبّ من مكانه ثم شرع يقذف السكران  
بوابل من الشتائم :

- أنا لستُ ذبابة يا عطن، لو كان الأمر بيدي لمنعتك منذ  
البداية من الركوب يا كومة القذارة.

أضاف بسخرية وهو يحرك يده أعلى وأسفل مشيراً إلى  
السكران :

- أنظر إلى حالك.. أنت مجرد قمامة أيها العفن. النفايات  
أفضل منك حالاً يا تافه.

كان جليس صاحب الكتاب مستاء مما يسمع، فقد تغيرت سحنة  
ملامحه، وغيّر من وضعيته أكثر من مرة وكأنه يجلس على  
الجمر. أما الآن وقد احتدم النقاش وبلغ حدّاً ربما يُفضي إلى  
مواجهة أخرى فقد تعاضم توتره وبات من الوشيك أن يفقد  
هدوءه. لاحظ صاحب الكتاب ذلك وأدرك أن جليسه في عراك  
داخلي مع رغبة في فعل شيء ما، وأن هذه الرغبة توشك أن  
تنتصر عليه.. فحركاته تفشي ما يعتمل في حفيظته، إنما اكتفى  
أخيراً بإصدار نفس الصوت الذي يشبه شيئاً ممدوداً، وكأنه  
يوصي من حوله بالصمت كمن يهدد طفلاً رضيعاً لينام بينما  
يُحدث إخوته ضجيجا مضجرا. التفت إليه صاحب الكتاب مرة  
ومرتين وثلاثاً.. لكن الرجل مستمر في إصدار ذات الصوت:  
"شششششششش". والغريب أن الركاب استجابوا فعَمّ الصمت.

كان السائق ينتظر هجوم السكران على الراكب الأخير، غير أنه اكتفى بإرسال نظرات هامة إلى السقف وكأنه لم يسمع. حوّل عينيه إلى المرآة لاستكشاف حال الراكب فرأى الابتسامة تملو وجوههم، لكنه لاحظ خلا بصريا دفعه للشك في عينيه، فاضطر إلى التوقف عن النظر عبر المرآة التي تعكس مشهداً غريباً.. لأن نصف الوجوه لم تغمرها الابتسامات بل بقيت محايدة. وتحت ضغط لهفة داخلية استجاب لفضوله فالتفت مقدار ثوانٍ ليتأكد من أن المرآة لا تخون بصره فكادت أنفاسه تتوقف واهتزت الحافلة مرة أخرى، فأثناء التفاته خاضت العجلات فوق حاشية الاسفلت المدببة، وتعالص صيحات النسوة وشتائم الرجال، فشرع السائق بالعرق يندلق من مسام جلده ويتصبب على جبينه. تعالت مجدداً أصوات الرجال باللعنات فنضحت مسامه بالمزيد من العرق، وماج وجدانه بإعصار مدوخ لم يجد معه بُدّاً من التوقف فداس على الفرامل بقوة مرة أخرى وأدار المقود جهة اليمين، فتأرجحت الحافلة حتى كادت تنقلب. ثم توقفت أخيراً وانقطع الصراخ والصياح والشتائم وساد الصمت. ثم انخرطوا في الحوار الغريب مجدداً وكأن شيئاً لم يحدث. فعمد هو إلى إدارة المحرك شاكرًا الله على أن أحداً لم يغادر مكانه. وتحركت الحافلة واستمر الحديث ثم غاص هو في خواطره محاولاً تعديل مزاجه الذي شوّشه الراكب. وحين عاد من جولته الذهنية هذه وجد الحوار قد انعطف إلى موضوع الحرية الذي فتحه الراكب الأخير وهو

يدافع عن نفسه من تهمة الجنون. كانت صاحبة الملابس  
المخرّمة تعبر عن مساندة الراكب الأخير حين قالت :

- الحرية هي وطني الوحيد.

ثم شرع الجميع في إبداء آرائهم :

- الحرية كلمة فضفاضة. ويمكن أن تختفي تحتها الوحوش  
الجائعة والأشباح المتربصة والشياطين المقنّعة.

- لكنها تبقى حرية.. وإلا ما جدواها وهي مقيدة بالشروط..

- إذا صارت مطلقة سيعم الاضطراب، وأنت تعرف هذا.

تدخل السكران قائلاً :

- الحرية ليس معناها أن تكون مطلق الفعل.

قالت ذات الضفيرة بتأفف :

- إذن فالحرية غير موجودة.

أجاب بصيغة توكيدية :

- بل إنها لا توجد إلا بهذا المعنى.

التفت نحوه صاحب الكتاب متسائلاً :

- أي معنى تقصد؟

نظر السكران إلى سقف الحافلة برهةً ورَجَّ رأسه عدة مرات  
ثم حكَّ ظهره بمسند المقعد قبل أن يُجيب قائلاً :

- الحرية.. إنها ما يصدر عن الإنسان، شرط أن يؤسس على قناعة، وهذه القناعة مرجعها كل ما تعارف عليه الناس من قوانين وأعراف وأخلاق ممّا يسمح بأن يبقوا ملمومين في جماعات يتبادلون الخدمات والمصالح دون أن يضرّ بعضهم بعضاً. أما التهور والأنانية أو التصرف السريع مدفوعاً بقوة الغريزة أو العاطفة فهو العبودية بعينها، ذلك أنك حين تقف لحظة لرؤية خياراتك، فإن حريتك يتسع مجالها وتكون سيد نفسك، وفي الحالة الثانية تصير عبداً لما يصدر عنك بشكل فوري.

استجاب صاحب الغليون لفكرة السكران فقال بعد أن كتب شيئاً في مذكرته :

- الحيوانات والنباتات تفعل ما تفعله أزلاً وأبداً دون تفكير ولا تدبير من غير أن تشعر بالرتابة أو الملل. لكن الإنسان غير هذه الكائنات، إنه مخلوق ليبدع حالات جديدة كل مرة. بل كل إنسان في الحقيقة لا يشبه أحداً، هو ذاته لا يشبه نفسه، فهو في تجددٍ مستمر، أما إن كان مبدعاً أو مخترعاً فإنه يسجل على المسار طفرات من الارتقاء لا مثل لها، إنه ينتصر على نفسه باستمرار، إذ يكتسب حريته التي خلق من أجل بلوغ أقصى تخومها بوعي وتدبير وترتيب دون أن يفقد إنسانيته.

عقب صاحب الكتاب وهو في حال من النشوة العقلية قائلاً :

- إذن فهي الوعي أيها السيدات والسادة.. الوعي بأن إمكان الحفاظ على كينونتك صافية أمرٌ ليس مستحيلاً. ولكن كيف؟ الاعتماد على التجارب ليس كافياً، لأننا نكرر أحياناً نفس الأخطاء ونتألم بسببها أيضاً ومن المحتمل أن يستمر ذلك حتى الموت، كما أن المسؤوليات تجرنا من رحاب ذلك الإمكان لتزج بنا بين الحين والآخر داخل دائرة الواجب حيث نفقد جزئياً ما أحرزناه من مساحات في أمداء الحرية. إذ لا بد أن تتحرك مكرها لتلبية نداء الواجب العائلي مثلاً. والسؤال هو: "أليس من سبيل لاختراع دروع ضد هذه الأمور وما تفرضه على الإنسان من ضروريات؟ كيف يستجيب للنداء؟ كيف يتجاوز الألم الناتج عن تكرار التجارب المقلقة، ويبقى مع ذلك قويا وحرا ومستمرا في غزواته لبلوغ أقصى حدود وعيه بوجود هذا الإمكان وكذلك مواصلة المتعة بهذه الكشوف؟ ومن زاوية أخرى نجد أن الوعي لا يكفي للتوقف عن فعلٍ مشينٍ وضار، إن الإنسان يتمسك بحريته مقابل التنازل عن حق من حقوقه، كما أنه أحياناً يختار حرته في التصرف بغض الطرف عن مسألة النفع والضرر. كم بلغ عدد المدخنين الذين يتناولون السجائر بشكل يومي مثلاً؟ حسب الإحصائيات الرسمية يفوق المليار، ومعظمهم يعرف الأضرار الخطيرة الناجمة عن ذلك، وهكذا الشأن مع الكثير من الأفعال الغريبة التي يمارسها الناس رغم أنهم يدركون خطورتها. ولذلك علينا طرح

السؤال مجدداً، أتكون الحرية أثنى وأغلى وأشد بريقا من المنفعة والمنطق؟ أم أنها باب مفتوح يلوح بعده كل شيء جميلاً وأخاداً بينما تختفي وراء العتبة مصيدة فتاكة؟

توقف لحظة ثم أضاف وهو يلتفتُ نحو الراكب الأخير :

- ما رأيك يا أخ؟ أظن أن هذا الإسهاب في الحديث عن الحرية قد فتح آفاقاً جديدة أمامك. بإمكانك إذن أن تختار بين أمرين الآن.

أضاف وهو يحرك يديه وأصابعه :

- أنا مع الشاب حين تحدث عن ضرورة مساعدتك في كلتا الحالتين أيها القنديل المنطفئ، أي سواء تراجعت عن هذا المسلك، أو قررت أن من الضروري أن تغادر الحياة. ما أود أن أوفق في تفسيره هو أن الإنسان، مطلق الإنسان، أعني أن حتى الأقوياء تمر بهم حالات من السوداوية والقنوط والغموض، لكنها لحظات عابرة. وكما يقال: "دوام الحال من المحال". لذلك، كما تستقبل برحابة صدر وفرح وحبور أوقات السعادة، عليك فعل ذات الشيء مع أوقات القلق والخوف والتوتر، وبذلك تترك لكفَّتي وجودك حرية التآرجح في تبادلها حركتي الصعود والهبوط لأنهما هكذا فقط تلتقيان بين الحين والآخر في حالة التوازي والتوازن. وهكذا تمنح لكيانك الواعي إمكانية القبول الكاملة، فيغدو الجانب المرفوض من الحياة مقبولاً وبالتالي يتبخر الألم.

وقفت السيدة صاحبة الثياب المزركشة وهي تتأفف وتحركت إلى الوراء عبر الممر الضيق بين المقاعد ثم طلبت بأدب بالغ من صاحب العمامة أن ينتقل إلى مكانها لأنها كما أعربت لم تعد تتحمل أشعة الشمس التي لم تدعها لتتابع الحوارات العميقة كما يجب. فوقف على الفور وهو مرتبك. جلست مكانه جوار صاحب الغليون وقالت بإعجاب وهي ترسل نظراتها إلى صاحب الكتاب :

- جميل ما قلته يا أستاذ.

أضافت وهي تنظر إلى الراكب الأخير بشفقة :

- لا أخفي أنني أشعر باضطراب جراء التفكير في مصير هذا المسكين، لذلك هناك التباس أريد أن أتقاسمه معكم بغية الوضوح. أفهم أننا نستطيع مساعدته حين يقرر مواصلة الحياة بأن نتباحث حول مشكلته ونقدم له يد العون، فالأمر إلى هذا الحد واضح تماماً. لكن كيف نساعده إذا ما قرر المسكين الاستسلام لرغبته في الموت؟ أنا أرفع يدي عجزاً بهذا الشأن! وأنا بريئة مما ستؤول إليه هذه الاقتراحات الغريبة.

كان وجدان صاحب الغليون قد تغير نتيجة انتقال هذه المرأة الناضجة إلى جواره. فقد كانت أكمالاً ثوبها المُنمنم تكنس بليوننة على زغب يده اليسرى وهي تتحدث بسبب حركة يديها وهي تُعلن عن رأيها في مسألة مساعدة الراكب الأخير على وضع حدّ لحياته. ولأنه مولع حدّ الهوس باقتناص خلجات نفسه فقد

كتب في مذكرته وهو يحاول لملمة حطام خواطره : "يستحيل أن تركز في عمل ذهني عندما يجاور مقعدك مجلس أنثى جميلة".

زفر المنقذ ورمى نظراته بعيدا وهو يفكر.. قال في سرّه : "الإنسان قويّ جداً، وفي أعماقه يحب الحياة ويُقدّرُها، تَنازُلُهُ عنها إذن لا يحدث بسهولة، لا يتخلّى عن حقه في الوجود إلا وهو تحت تأثير ظرف نفسي عسير، أما كل الظروف الظاهرة فبوسعه تجاوزها والانتقال إلى الضفة الأخرى، شرط ذلك أن يكون مرتباً في داخله. لم نسمع مطلقاً أن المُهدّد بالغرق وفي لحظة من كفاحه قرر التوقف عن محاولة النجاة لأنه تعب، أو غلبه الملل، فيستسلم للأعماق لتبتلعه بينما يكون قد بقي بحوزته الكثير من الجهد ليبذله. إنك حين تمارس العنف العاطفي على ذاتك، وترى الأوقات تنسل بين يديك وتبدو مشلولاً وخالياً من أي رغبة، إنما تسدي خدمة جلييلة للشيطان، إذ بذلك تخون الوجود الزاخر بما تظن أنه غير موجود أو صعب المنال. فإذا كانت هذه حال هذا المتهاك.. فعليه أن يفكر طويلاً قبل أن يستغرب حين يرى رجلاً شريداً يرمي كل قطعة نقدية يجود بها المارة".

اهتزت الحافلة وتأرجحت قليلاً. كان السائق يتابع الحوارات الدائرة بين الركاب رغم أنفه، مرة يبتسم، وأخرى يضحك.. لكنه في الغالب يزفر ويشعر بالحصار والذهول، وأيضاً بالغضب والارتياب.. ومرة أحس أن داخله فارغ حتى من أبسط شروط التعقل وأنه بالنتيجة قد يفقد اتزانه فجأة وينجرف

إلى الحافة، وتتدحرج الحافلة ثم تنقلب رأساً على عقب.. وأثناء ما هم يتناقشون حول الحلول المتاحة لوضع حد لحياة الراكب الأخير في حال ما إذا قرر الموت، إذ بالمقود ينزلق بين يديه نتيجة التعرق الذي يعرف أنه ليس لحالة الطقس أي دخل فيها رغم حرارة الجو، بل بسبب حالة الرعاش التي بدأت تتحرك كقطيع من النمل داخل أطرافه.. وهنا وبسبب اهتزاز الحافلة، قرر تعديل مساره قليلاً حتى يتحكم في الحالة الراهنة، فأدار المقود ناحية اليمين وخفف السرعة. وفجأة تكلم الميكانيكي بعد صمته الطويل قائلاً :

- إذا كانت السرعة التي تفوق مائة وعشرين كيلومتراً في الساعة مُميتة في أغلب الأحوال، فلماذا لم تتوقف الشركات عن تزويد المحركات بأنظمة تفوق المائتي كيلو؟

نبر السائق بحدة :

- وكان الحوار مؤطر منذ البداية بموضوع مُحدّد.. اللعنة عليكم يا سفلة.

تجاهل الجميع السائق مثلما يتجاهل الكبار كلام طفل صغير غاضب. غير أن صاحب الغليون أجاب الميكانيكي بسؤال آخر بينما التفت الركاب نحو الميكانيكي الذي كان منسياً في مكانه منذ بداية الرحلة :

- وما ضرورة هذا السؤال يا أخ، وما علاقته بالمسألة التي يدور حولها النقاش؟

ابتسم ونقل عينيه بين الركاب كأنه وقع في ورطة، لكنه أجاب بهدوء وبعبارات واضحة :

- لاحظتُ فقط أنكم تتحدثون منذ البداية حول تصفية هذا الرجل الهزيل الذي يرغب في الفناء، بينما في الحقيقة نحن جميعاً نتواجد فوق كفّ عفريت، لأننا بكل بساطة وباختصار.. نركب حافلة يقودها سائق ضعيف، وربما جاهل بأبجديات القيادة، ومن المحتمل أن يكون ذا تجربة محدودة. والأدهى من كل هذا أن تكون معرفته بالميكانيكا معدومة.

صَفَّق ذو الصوت الرعدي بحيرة وقال مُعقِّبا ورأسه يتحرك مثل البندول :

- لا حولاً ولا قوة الا بالله.. أتدرون أن كل هذا صحيح؟  
تحركتُ أصابع صاحب الكتاب وهي تُداعب الصفحات وقال :  
- فعلاً.. هذا واردٌ بلا أدنى شك.

تشجّع الميكانيكي باستحسان الحاضرين لحديثه فأضاف بعض البهار لملاحظته بطرح هذا السؤال:

- ما أهم شيء في السيارة في نظركم؟ السائقون المهرة وحدهم يعرفونه، قد يبدو السؤال غريباً أو عادياً غير أن الأمر في غاية الخطورة.

نظر حواليه لاستطلاع ردود الركاب فلم يلحظ إلا عيوناً  
جاحظة وأفواها فاعرة، فتوجه نحو السائق وطرح السؤال  
بصيغة مختلفة :

- هه، أين تجربتك في القيادة يا سيدي؟

رماه السائق بنظرة فارغة من أي تعبير.. لا ترحيب ولا  
ازدراء. حرك الميكانيكي رأسه بانكسار واستغراب وابتعد  
عائداً إلى مكانه.. ثم أجاب عن سؤاله بنفسه بينما الركاب  
ينصتون :

- إنه الفرامل أيها السادة، ولكن لماذا؟ لأنه يمكنك بالضغط  
عليها أن تُوقف السيارة في الحالات الحرجة كلما بدا خطر  
أمامك وبالتالي تتحكم في سرعتها وتتمكن من إيقافها  
ريثما يزول الخطر، أو عندما يقع عطب ما. أما في  
غيابها، هه، تخيلوا أنتم ما سوف يحدث. ما أريد أن أقوله  
هو أننا أيضا نشبه السيارات. كل المشاكل التي نكابدها لا  
تقاس بفقدان التحكم في النفس، كوارث ... إيه يا أخي،  
كوارث حقيقية تُدمر العائلات والعشائر.. والشعوب  
أيضاً.

وبصوت خفيض تابع :

- وقد تُدمر العالم برمته يوماً... وهل نعرف أين توجد  
فرامل النفس المارقة هذه؟

استدرك مواصلاً وقد تغيرت لهجته :

- ومع ذلك لا بد من الإشارة إلى أن سوء استخدام هذه  
الفرامل على أهميتها، قد يصنع أيضاً كارثة حقيقية.

ثم بلهجة مختلفة وبصوت ينخفض رويداً :

- فمما لا شك فيه أن السائق كما لاحظ الجميع، وهذا منذ  
بداية الرحلة، قد أفرط في الضغط عليها من غير داعٍ.

قال السائق وهو يتجرع المهانة، وكان صوته مبوحاً ونبراته  
مرتعشة :

- هذه الرحلة مختلفة ما في ذلك من شكّ. أدركتُ ذلك منذ  
البداية، لدي يقين بأن هذا اليوم خارجٌ من الجحيم. يجب  
أن أعترف بهذا الأمر وإلا أقدمتُ على فعل كارثي.

نبرت السيدة المُسنّة بصوت يُنمّ عن الاحتقار :

- ما أسهل الكلام..

ثم لوت شفيتها ازدياء وأضافت بلهجة فيها مزيد من الطعن  
والتحقير مُرددةً عبارته الأخيرة :

- وإلا أقدمتُ على فعل كارثي.

ثم أضافت وهي تبصق من النافذة :

- الكلام مجرد هواء.. اللعنة.

اشتعل الفتيل في ذهن السائق واختلطت خواطره وتجهمت  
ملامحه. أما أسنانه فقد التصقت بشدة نتيجة الهياج ونفاد  
الصبر. سدّد في الحال نظرات حادة إلى الميكانيكي عبر المرآة

وزمجر بصوت كالزئير وهو يضغط على الفرامل بقوة وفجائية :

- أعتقد أنك تقصد هكذا.

كاد الميكانيكي يسقط لولا أنه كان يمسك القضيب الحديدي. أما الركاب فقد انجرت جذوعهم إلى الأمام بينما انفجرت أصوات النسوة بالصياح.

قالت ذات الضفيرة بعد أن سكنت الضجة وعم الهدوء :

- أيها السائق.. أذكرك بضرورة التركيز على القيادة. فهذا التآرجح الزائد برهان واضح على الاضطراب أو قلة التجربة في مجال القيادة كما قال هذا الرجل.

ثم حولت عينيها جهة السيدة المتسائلة وأردفت :

- سأقول لك يا سيدتي ما العمل.

هّب صاحب العمامة وحرك يده دلالة عدم الفهم ثم قال :

- وضّحي عافاك الله يا شابة.

- المسألة واضحة ومحسومة.. أظن أنني وعيت ما يقصده هذا الرجل.

تابعت وهي تتجه بسؤالها إلى صاحب الكتاب :

- ما رأيك يا حامل الأسفار؟

اكتفى صاحب الكتاب بتعديل نظارته وعاد لتصفح كتابه. ولأنها لم تحظ بجواب عن سؤالها الذي بدا غامضا بالنسبة

للجميع فقد تملكها الاحتدام والفضول. ولذلك اعترتها حالة من التهور فمدت يدها ولمست رأس الراكب الأخير الجالس أمامها، فجفل هذا والتفت وفي فمه شتيمة، لكن الفتاة هجمت قائلة بصوت هجين :

- لا عليك يا عم. أعتقد أنني أفهم مشكلتك، وربما بقليل من الحظ، وبمعونة الله، سأساعدك وحدي لتصل بسرعة.

ثم دنت من أذنه وطرحت هذا السؤال همساً :

- أحقا تريد أن تموت؟ المسألة أسهل بكثير مما تظن. سأساعدك الآن إذا أردت. أنا طوع أمرك.

التفت من جديد ورأى جديّة واضحة في عينيها وصرامة كاملة على قسماتها فقال بصوت سمعه الجميع :

- الموت على يديك يا شابة سيكون حلوا، شيئا خارقا. لكنني أنصحك كأب، لا تقترفي ذنبا يجعل هذا الجمال يزوي ويذبل داخل زنازة ضيقة، بينما في الإمكان أن يتبرعم وينتشر أريجه في مكان مختلف تماما. أنت تعرفين هذا، أم أنك لا تعرفين؟

شعر السائق أنه وحيد وسط وحوش مسعورة وجائعة. نضح العرق أكثر و صار المقود زلقا. الجو داخل الحافلة بات مكهربا بالتوقع والانتظار. تمنى من قلبه أن يتدخل صاحب الكتاب ليجعل ذات الضفيرة تتراجع وتتخلى عن هذه الحدة، انتظر آراء الآخرين دون جدوى، كانوا جميعاً ينظرون إليهما وكأنهم

مأخوذون بمشاهد شريط سينمائي بحيث لا يملكون القدرة على تغيير أي شيء في السيناريو.

ربتت على ظهره فلم يلتفت. فتجرات وهزته من الكتفين فاهتاج والتفت نحوها فسألته بسرعة وبصوت واضح:

- هل تودّ مواصلة حياتك وفتح صفحة جديدة أيها السيد؟

زأر بصوت مرعب :

- هل تودين الذهاب إلى الجحيم؟ اذهبي إلى الشيطان...!

شعرت برذاذ لعبه وقد تناثر على وجهها واعتصرها جحيم داخلي فصرخت وقد التوى فمها غضباً :

- هل أفهم من كلامك أنك حقا تريد رفع هذا التحدي وتعترف أنك تتقزز من هذا الوجود كله وتريد الموت حالا؟

أجاب هذه المرة بصوت كالرعد وقد جحظت عيناه وصارت سحنته مخيفة بينما أحاط رغاء أصفر بشفتيه:

- أي نعم.. أريد أن أنتهي.. الآن وليس بعد قليل أيتها الزانية.. وبعد ذلك اذهبي أنت والشيطان إلى الجحيم.

اهتز السائق من مكانه رغماً عنه نتيجة هذه المواجهة. وبدأت الحافلة ترسم التواءات طفيفة. أما ذات الضفيرة فقد مسحت الزبد المتطاير من فم الراكب الأخير عن وجهها ثم زمجرت قائلة :

- بعد كل ما سمعته من هؤلاء الناس من استعدادهم لتقديم يد العون يا وجه البوم.. يا كلب؟

وبصوت صار أشد من الأول أجاب :

- ألا تفهمين؟ يبدو أن معاناة العاهرات أكبر مما نظن..  
وبطء الفهم أشدها على الإطلاق.. تفو عليك!

بصق عليها وأضاف:

- إلى الهاوية أيتها المتوحشة. زانية بنت الكلب.

هزَّ صوته أركان الحافلة، وانتشر دبيب الخطر والكارثة في قلوب الركاب. أما هو فقد عاد إلى مكانه وجسمه يهتزُّ من التوتر. وهنا تحولت ذات الضفيرة بغتة إلى مخلوق آخر، وبدأت ملامحها في التغيّر بسرعة.. وسمع الجميع صريف أسنانها. أما السائق فقد أصبح في حالة من الاحتدام والتوقع بلغت به أن داس على البنزين من غير أن يشعر أن سرعة الحافلة فاقت المعدل المسموح به، وهو يتابع حالة الركاب المكهربة من خلال المرآة.. وحين جلس الراكب الأخير في مكانه واصل إرسال الشتائم دون أن يلتفت إلى الشابة التي مسحت وجهها من بُصاقه بِكُمِّ قميصها بهدوء زاهر بالاحتدام. وأمام دهشة الجميع شدَّت على نهاية ضفيرتها الطويلة باليد اليمنى، وعلى منبئتها باليد اليسرى ثم داهمت الرجل أمامها فوضعت الضفيرة بإحكام مثل حبل حول رقبتة، وبكل ما أوتيت من قوة شدتها، لكنه كان قد سارع إلى وضع أصابعه بين الضفيرة والعنق فحال دون انقطاع نفسه واستمر لعدة ثوان

في كفاحه فيما استمرت هي في إحكام الشدّ، وفي مثل لمح البصر تحرك الشاب صاحب السيجارة ومعه الذين كانوا قريبين من المعترك، وتدخلوا جميعاً قبل حلول الكارثة. حاولوا منع الفتاة من قتل الرجل فقد بدأت عيناه في الاحمرار، لكن الحافلة تهتز، وكانت الفتاة مثل لبوة جائعة، ولتُحکم ضفيرتها بمزيد من القوة على رقبة الرجل وضعت ركبتيها بإحكام على ظهر الكرسي أمامها وجذبت بشدّة، كان وجهها قد انقلبت ملامحه بحيث أنك حين تنظر إليها في لحظات الاحتدام تلك ستظن أنك ترى وجه الشيطان نفسه، لم يتمكن الآخرون من تخليص الرقبة المتقصفة، صرخوا مثل وحوش محاصرة وشرع الركاب جميعاً في الصراخ. صارت الحافلة الآن مسرحاً لواحدة من أشدّ الرحلات غرابة. لم يعد السائق يعرف ما يجب فعله فداس على الفرامل بشدة إلى أقصاها فتوقفت الحافلة بشكلٍ مباغتٍ وهي في حالة من التآرجح والاهتزاز أوشكت بفعلهما على الانقلاب. لكن وبسبب هذه الفرملة فقدّ الجميع توازنه فانفالت الضفيرة بين يدي الفتاة، وسقط الواقفون مثل جذوع نخل متداعية، وأنحنت رؤوس القاعدين مثل أغصان تدفعها ريح شديدة، بينما اصطدمت جبهة الراكب الأخير بالمقعد أمامه فتداعى جسده مثل ثوب مهلهل. ولأن الحافلة لم تنقلب فقد استرد الجميع أنفاسهم، ورجعوا إلى أماكنهم وهم في حال من الانهالك والتشوش والذهول، أما السائق فقد صعبت عليه العودة إلى حالة من الصفاء تعينه على لملمة مشاعره المتطايرة وأفكاره المضطربة، ولذلك بقي دون

حراك ولم يستطع مواصلة القيادة، تحرك الفتى الذي كان يجلس جنب الراكب الأخير ليفسح مكانا يسع الجسد المتهالك، ومدّده على كامل المقعد، ثم جلس على أرضية الحافلة مكدوداً ومتعباً.

غادر السائق مقعده وهو يُغالب الارتعاش، وتوجه صوب الراكب الأخير وطلب من أحد الركاب مساعدته فنقلاه سوياً إلى الفسحة الفارغة وسط الحافلة. تجمهر الركاب مُتَحَلِّقِينَ حوله بينما نظراتهم مصوبة كلها نحو الجسد الهامد فوق صفيح الحافلة، قَرَفَصَتْ الفاتنة التي أعانت السكران إلى جواره ومدّت يداً مرتعشة ثم شدّته من سترته ورجّت الرجل صدّاً وردّاً لكنه بقي ساكناً فتساءلت بعينين جاحظتين :

- أهو حقاً ميّتٌ؟

- إنه كذلك.

- قد يكون مجرد إغماء فحسب.

- لقد حرّكته الفتاة بقوة لكنه لم يحرك ساكناً.

- ربما يحتاج كي يستيقظ لأكثر من ذلك.

انحنى صاحب الكتاب فوق رأسه فصفعه بلطف أكثر من مرة، ولأنه بقي على حاله فقد صفعه بشدة ثم انتظر برهة بينما كل الركاب يتدافعون محدثين بحركاتهم وأسئلتهم ضجيجاً وصخباً. شدّه هذه المرة من كتفيه وجذبه بليوننة حتى صار في وضعية الجلوس فسقط رأسه باستسلام على صدره، ثم أفلتته وتركه يتداعى فالتوى إلى الوراء وخرّ ليرتطم رأسه من الخلف

بالصفيح. هنا قال السكران وهو يشعل السيجارة التي منحها إياه الشاب :

- لو كان لا يزال رمق من الحياة في جوف هذا الرجل لتبخّر نتيجةً لما فعلته الآن يا سيدي.

هَبَّ صاحب الكتاب بفجائية وصرخ في وجه ذات الضفيرة :

- ماذا فعلتِ أيتها المتوحشة؟

وقفت متأهبة أمامه بتحدٍّ وصرخت هي الأخرى :

- فعلتُ ما يجب فعله. ألم نتفق جميعاً على قتله؟ حتى يرتاح؟

- هذا مجرد هذيان.. كنا فقط نتحدث حول مسألة معينة، ولم يكن القتل وارداً. وإذا تحدثنا بطريقة شنيعة بعض الأحيان فلغرض واحد.

- وهو؟

- هو استقطاب كل وجهات النظر بما فيها الموت يا مغفلة.

- بل كنا نتحدث عن القتل كحل وحيد معظم الوقت.

- القتل كان مجرد فكرة واردة مادام الموت واقعاً في كل الأحوال أيتها المتوحشة.

- أنتَ شيطان. لو لم تكن موجودا في هذه الرحلة لما حدث ما حدث.

- هراء.. الجرائم في كل مكان أيتها المجرمة، وسببها في معظم الأحيان شخصٌ غير مُتزنٍ مثلكِ يفقد زمام الأمور بسرعة.



- علينا أن نتكفل بكل من تُسوّل له نفسه المساس بسلامتنا  
وسلامة السائق، دون أن نغفل ذكر الحافلة، فبدونها لا  
رحلة هناك أيها الإخوة.

قال صاحب الكتاب وهو يرمق جليسة من زاوية عينيه :

- إذن علينا إسكات هذ الصوت قبل فوات الأوان.

قالت المرأة المسنة :

- الموت راحة..

ثم ألقت نظرة غريبة على الجسم المسجى في الفسحة على  
الصفيح وأضافت :

- ويا حظ من استراح.

هَبَّتْ ذات الضفيرة من مكانها ممسكة بطرفي ضفيرتها وقالت  
:

- أنا أكفيكم شره، لن أتردد لحظة واحدة ..!؟

هسهس الرجل بصوت أعلى من الأول :

- "شششششش"

انتهز صاحب الكتاب توقف الحافلة فتحرك حتى وقف بمحاذاة  
السائق وقال له :

- طفح الكيل.. صار من الواضح الآن، أن هذا الصوت  
نذير شؤم. وترك هذا المجنون يُحدثه باستمرار مغامرة  
حقيقية.

قال السائق وقد صارت مشاعره مزيجاً بين الذهول والغضب  
:

- اذهب إلى مكانك أيها السيد من فضلك. فما حدث الآن،  
ليس كما لو أن أحدا سقط من يده وعاء زجاجي وانكسر..  
نجمع الشظايا ونرميها ثم نمسح الأرضية وعفا الله عما  
سلف..

- ماذا تعني؟ وعمّ تتحدث؟

- لحدّ الآن أنا أتحكم في زمام الأمر.. فلا تتحداني حتى لا  
نصل إلى نقطة اللاعودة. الرجل المقتول هناك...

- عن أي رجل تتحدث؟ استيقظ أيها السيد، لقد كان مجرد  
بقايا إنسان، وقد وصل إلى مبتغاه، حققنا له أمنيته، قدمنا  
له يد العون ليصل إلى هدفه. أهكذا تفكر؟ تتهمنا في حين  
أننا نستحق الثناء؟ وأنت.. ألا تود أن تحصل على مساعدة  
ممن حولك حال وقوعك في أزمة؟

- علينا إبلاغ السلطات. ولا بد أن أذكر أنني لا أستوعب  
منطق تصرفاتكم أكانت أقوالا أم أفعالا.  
- سأفسر لك. أنت..

قاطعته السائق:

- مكانك أيها السيد فقد طفح الكيل..  
- طيب.. لكن لا تقل بعد فوات الأوان أن أحدا لم يتكفل  
بتنبيهك!

عاد إلى مجلسه جوار صاحب الهسيس، فأضاف السائق بصوت سمعه الجميع :

- لقد تمّ ارتكاب جريمة هنا، وعلينا ألا نتحرك قبل إبلاغ الجهات المعنية و...

لكن قبل أن يفرغ من الحديث هسهس الرجل مجدداً، فضغط صاحب الكتاب على غضبه حتى لا يهجم عليه ويشد على رقبتة حتى الموت.. لذلك هبّ واقفا واتجه نحو السائق مرة أخرى وطرح عليه السؤال التالي دون مقدمات :

- أخبرني أيها السائق، أعرف أنك لا تتقن القيادة.. فهذا واضح، لا تؤاخذني على صراحتي. ولكني أعرف أنه من المُحال أن يبلغ المرء الشأو البعيد في كل شيء، فشؤون الحياة لا تُعد ولا تُحصى، وأن يُحسن الفرد القيام بها جميعاً أمر محال من غير شك. نحن جميعاً ندرك هذا الأمر ونُقرّ به. الناس يتفاوتون في المهارات والقدرات والمواهب واللياقات. أقول ما أقوله كي أؤكد مسألة في غاية الأهمية والخطورة، وهي أن عدم إتقانك القيادة لا يعني أنك لا تتقن أموراً أخرى.. تفهم قصدي بلا شك. أليس من حق المرء أن يشعر بالاعتزاز والاعتداد حين يفعل شيئاً مميزاً؟ أقول بلى.. وقد حان دورك حتى تحقق حلماً من بين أحلامك الآن بعيداً عن الإمساك بهذا المقود. ولذلك عليك اتخاذ القرار بسرعة! معذرة إن كان حديثي ميالاً إلى الاستفاضة، ولكن أظن أن بعض شؤون الحياة

يمكن أن يضر بها الاختصار والاختزال، فالإسهاب فيها ضروري. لذلك أود استشارتك في أمر قد تكون أكثر دربة ومهارة مني في تنفيذه. أو على أقل تقدير، سأكون موفقا لو عثرتُ لديك على معلومات بشأنه..

ظن السائق لوهلة أن الرجل قرر مواكبة ما حصل واقتنع بضرورة الالتحاق بأقرب مخفر للاتصال بالشرطة فسأل وهو يغالب الخوف الذي داهمه من كلام صاحب الكتاب وحركات يديه ونظرات عينيه:

- ماذا تقصد؟

هكذا سأل باقتضاب وهو يحاول التحكم في اختلاجه يديه.

- ماذا أقصد؟ ها.. سؤال في الصميم. اسمع. من خلال هذه المرأة يمكنك أن ترى جليسي.. نعم. ذاك الرجل مجنون أو مضطرب، وأخاف أن يفعل شيئا يُخلّ بالنظام داخل الحافلة، وقد يسبب في حادثة خطيرة ونصير جميعا.. وأقول جميعا ودون استثناء أيها السائق، نصير كلنا في خبر كان. وأنت بلا أدنى شك تعرف معنى أن نكون كلنا في خبر كان. نصير في لحظات معدودة، قصة تُحكى، بعد أن كنا أحياء يرزقون! ولماذا؟ لا أحد طبعاً من الذين سيحكون قصتنا سيعرف أن مجنوننا مختلا كان بين الركاب. أنظرُ إلى وجهه.. رأيت؟ ركز على عينيه، إنهما عينا إنسان غير سويّ بالمطلق.. ما رأيك؟

أجاب السائق بصوت مرتعش :

- رأيي بخصوص ماذا؟

قال صاحب الكتاب بوثوق :

- لقد فكرتُ في كتم أنفاسه لأنه لا يتوقف إلا لمأماً عن

إصدار الهسيس.. ما قولك؟ أعني هل ستساعدني لتتحية

هذا الخطر المحدق؟ ليس الأمر أني أعجز عن قتله

وحدي، بل لأن التعاون تكون نتائجه فعالة ومؤكدة

ومثمرة.. وصاحبة الضفيرة معنا في التنفيذ، وكل الركاب

كما لاحظت قبل قليل مؤيدون بكل تأكيد، لا تتردد يا رجل

فالفرص قلما تتكرر! وأخيراً أضيف هذه الفكرة حتى

تكتمل الصورة وتفهم قصدي، اسمع.. الأمر ليس بالسوء

الذي قد تتصوره.. لا. إطلاقاً. إليك المسألة.. خطة

محسوبة ومحكمة، بعض الخيال، قرار لا رجعة فيه، ثم

تنفيذ سريع، ونتخلص من الخطر، ولا تسأل عما سنفعله

بخصوص الجثة؟ أنا أتكفل بهذه الخطوة وحدي.. هيا بنا.

نظر السائق إلى صاحب الكتاب غير مصدق، وازداد ارتباكه

واضطرابه لما وجد في ملامحه توافقاً وتطابقاً كامليين مع ما

قاله قبل قليل.. وخرج هذا السؤال من فمه بشكل عفوي :

- ما الداعي إلى اقتراح فعل شنيع كالقتل؟ هل إحداث

هسيس يكفي في نظرك لارتكاب جريمة؟ أحقا أنت مقتنع

بذلك وبهذه السهولة؟ والجثة الموجودة هناك ماذا بشأنها؟

هل أنت سليم معافى من الناحية النفسية والعقلية؟

- أه.. نعم، الجثة، طيب.. أنظر.. نحن هنا في منطقة لا عمران فيها، انطلق حتى نصل إلى حيث السلطات لندلي بأقوالنا، لا مانع.. القانون لا يُعلى عليه.

أدار السائق المفتاح.. ارتعشت الحافلة كأنها تستيقظ مرغمة من إغفاءة الظهيرة، ثم بدأت تتحرك. قال السائق لصاحب الكتاب الذي لم يبرح مكانه :

- لا أحد يقترب من الجثة.

قال صاحب الكتاب وهو يحرك يديه :

- لنترك جانبا مسألة الجثة حتى نفرغ من تقييم هذه المسألة! الهسيس المتواصل تمهيداً لجريمة، وفي حال إهمال إسكاته في الوقت المناسب، سيتحول هذا الهسيس إلى صاعقة، أوكد لك. وانتظار حدوث جريمة بهذا الحجم، يُعد في نظري من أكبر الجرائم على الإطلاق.

سأله السائق بصوت مبحوح :

- هل تناولت قبل ركوبك الحافلة أقراصا مهلوسة، أو شيئاً من هذا القبيل؟ لأن بيرة واحدة لن تُحدث مفعولاً بهذا الحجم.

- أفهم أنك تستغرب الأمر مع أنني أسهبت في التفسير والتوضيح، لكن يبدو أنك متردد... إليك الخطة، اسمع، سأكون حريصاً وأنتقل إلى العمل خطوة خطوة رغم أن صبري ينفد بسرعة، سوف أكون شهماً لأجلك أنت. لذلك

هاك ما سأفعله. سأخيّرُ هذا الرجل بين الصمت أو الموت!  
ما رأيك؟ المسألة محسومة.. ما قولك؟

وهنا داس السائق على الفرامل، فكاد الرجل يسقط لولا أنه كان ممسكا بحافة المقعد جواره. وردد الركاب الشتائم، وبصق أحدهم عبر النافذة دلالة السخط. استرد صاحب الكتاب توازنه ثم مد يده وشد على معصم السائق بإحكام وخاطبه بلهجة أبويّة :

- عليك أن تتحكم في ذاتك يا بني، فكل ما يبدو وكأنه قَدْرٌ وتأتيك فكرة مفادها أنك يجب أن تستجيب له وتستسلم، بلا ردة فعل، بلا تفكير، ولا تدبير، إنما هو افتراض بين افتراضات، لا أقل ولا أكثر. إلى الرmq الأخير يا بني.. نعم، المقاتل يُواصل إلى الرmq الأخير.. عدد المرات التي ضغطتَ خلالها على الفرامل بقوة وجِدّة ومباغته، كثيرة يا بُني.

عاد إلى مكانه وترك السائق نهباً للفوضى يكاد إعصار ذهني يتلف أعصابه وبدأ العرق يتصبب.. عقله الآن ذاهل تماما، كل محاولة يبذلها لفهم ما يحدث تذهب أدراج الرياح. لقد كانت كل هذه المدة التي مضت وهو يمارس القيادة مليئةً بالمتاعب والمشاحنات، أحياناً بينه وبين الركاب، وأحياناً أخرى بين الركاب بعضهم بعضاً. تارة تكون لأسباب معقولة ومفهومة وتارة أخرى بسبب توافه الأمور. قد يصل بعض هذه المواجهات حد الاشتباك والاقْتتال، غير أن بقية الركاب

يتدخلون لفك النزاع وتعود الأمور إلى سابق عهدها. لكن هذه الرحلة لها طعم خاص، يوجد في المسألة شيء غامض. كل الركاب يتصرفون على نحو يوحي بالانفصام، فتارة يكون الواحد منهم متزنا ومدركا للأمور، وتارة يتحول قولا وفعلا إلى النقيض، شخص واحد كان منذ البداية وما زال حتى الآن وقوراً وصامتا، وهو منقذ الركاب الأخير، ذو البنية الحديدية، إنه قلما يلتفت إلى الموجودين وجموحهم، يرمي نظراته خارج الحافلة وكأنه المسافر الوحيد ولا يوجد بقربه شيء أو أحد يزعجه، ولم يبق إلا أن يغمض عينيه ويأخذ قيلولة. التفت السائق إلى صاحب الكتاب ثم أوقف الحافلة فجأة واتجه نحوه، انتصب أمامه وقد تصلبت عضلاته وفي أعماقه تجيش أخلاط من العواطف ليس لها إلا تفسير واحد، أن يفعل شيئا ينافي التعقل، وليحدث بعد ذلك ما من شأنه أن يحدث. وبغثة شد على ساعد الرجل وقال:

- أنت رجل مجنون.. كلكم هنا مجانين، ولا أدري من أرسلكم.. أو من تكونون، الركاب عادة يطلعون وينزلون طوال الرحلة.. أما أنتم فلا.. لم ينزل أي واحد منكم في محطة. وكما لاحظنا جميعا لم نجد أي راكب آخر ينتظر وصول الحافلة في أيما محطة، وهذا شيء لم يحدث قط خلال عملي بهذه الحافلة. ثم إن أحاديثكم معظمها لا يخضع للمنطق، ومجمل تصرفاتكم تعطي انطباعا صارخا بعدم الاستقرار. الخلاصة أنكم مجانين وتريدون أن أجن! وهذا لن يحصل.

بدا أن صاحب الكتاب هادئ وكأن كلام السائق لا يعنيه. قال بصوت فيه من الليونة بقدر ما فيه من الغموض :

- الجنون أكلوبة، إنه الخوف يا صديقي، حين تخاف تضطرب أفكارك، وفي حال عدم إدراك هذا الأمر يشتد الخوف، ثم يتضاعف الاضطراب ومعه يصير الخوف هلعاً.. هنا تصل إلى حالة عقلية تنفصل خلالها الأفكار عن المنطق، والعواطف عن التسلسل العادي. وهذا ما يسمونه جنونا. إنه مجرد خلل وجداني. إنك في هذه اللحظة تعيش هذه الحالة.. وإذا أردت الصدق فأنت ودون أن تدرك ذلك على ما يبدو، محظوظ لأنك تحظى الآن بأكثر دروس الحياة عمقا وفائدة.

وهنا شعر السائق بأن يده تتخلى عن صلابتها، فانسلت يد صاحب الكتاب من بين أصابعه التي صارت رخوة وهشة. لو أن أحدا فتح قلب هذا السائق الآن.. في هذه اللحظة، لما وجد سوى أمنية واحدة، أن يسدل جفنيه لحظات قليلة، ثم يفتحهما فيجد نفسه فوق جبل.. تحت شجرة، أن يكون وحده يوما.. يومين.. عاما.. مائة عام.. دهرا.. حتى يقرر وحده العودة دون أن يشعر بثقل واجب، أو عبء مسؤولية، أو هسيس راكب، أو فلسفة حامل كتاب، أو عربدة سكير. سيصطاد الأرانب والحجل، ويبحث عن نبع ماء رقرق، ويبني جنبه كوخا، وينصت للصمت، يمنح روحه للطبيعة، يُشبع عينيه من السماء وتلاوينها الصباحية والمسائية... لكن ها هو الآن يعود من هذا

الحلم. لقد وضع صاحب الكتاب سبأته على صدغ السائق ثم قال :

- هنا تجد الجبل، والساقية، والسماء، والظل والحجلان، والنسيم والرياح والهدوء... وهنا أيضا يكمن الأسي، والضياء، والغباء، والقلق، والجنون... يمكن أن تقنع إنسانا بإغلاق صندوق بعدة أقفال ودفنه تحت التراب، وتوهمه أن محتوياته ثمينة، هذا على الرغم من أن هذا الصندوق في الحقيقة فارغ، وهذا هو الغبي. أما الذكي فيسألك منذ البداية عما يوجد داخل الصندوق قبل إحكام إغلاقه، ثم لا يتوقف عند هذا الإجراء لأن جوابك يحتمل الصدق كما يحتمل الكذب على السواء، إذ يعتمد إلى فتح الصندوق، فإذا وجده فارغا كشف الكذب والمكيدة، وإذا ألفاه حقا مليئا، لا يثق أيضا، إذ يقلب ويمحص حتى يتأكد من قيمتها، وعندها يسأل عن سبب ضرورة إخفائه ليقرر.. وهذا هو فرع من فروع الذكاء، فلا حدود للغباء يا صديقي، وللذكاء آفاق لا تنتهي.

ثم ضرب برؤوس أصابعه ضربتين خفيفتين على جبهة السائق وأضاف :

- عليك كخطوة أولى أن تتأكد من مسألة في غاية الدقة والأهمية، وهي أن تبحث هنا - وهو يعيد نفس الضربتين على الجبهة - وتتأكد مما إذا كان هذا الصندوق يحوي كنزاً، أم خردة، أم وهماً.

ثم أخرج الكتاب من جيب المعطف ورفعهُ إلى مستوى عيني السائق، وأخرج من الجيب الآخر ولاعة فأشعلها، وشرعت النار في التهام الكتاب، تساقطت الصفحات نثراً من النَّتْفِ السوداء، وانتشرت رائحة الحبر والخشب وعلا الدخان، كل ذلك والسائق ينقل بصره بين صاحب الكتاب والنار وكومة الرماد والنثار الأسود. وعند انطفاء النار دسّ يده من جديد داخل جيب آخر، وأخرج كتاباً جديداً وضعه جنب مقود الحافلة، ثم قال وكأنه يواصل ما انقطع من كلامه السابق وهو يشير بسبابته إلى رأس السائق :

- أم أنه وعاء فارغ لا أقل ولا أكثر!

قال العبارة الأخيرة وهو يضرب كفا بكف كما لإزالة شيء عالق بهما. ثم تحرك متجهاً إلى مقعده وترك السائق خرقةً في مهب الخواطر المائجة، لم يفهم شيئاً، فقد تركيز تماماً. وللحظات بقي عاجزاً عن إحداث حركة أو نأمة، صار تنفّسه ضئيلاً، بقيت عيناه مفتوحتين على اتساعهما في جمود متواصل، حتى أن صراخ الركاب لكي يستأنف القيادة للوصول إلى المحطة النهائية القريبة لم يبلغ أذنيه. تقدمت الفتاة ذات الضفيرة حتى وقفت جنبه وربتت على كتفه وقالت :

- لقد وصلنا بسلام. أنظر هناك. إنها المحطة الأخيرة.

نظر إليها بذهول ثم أعاد نظراته إلى الأمام.. بدا عليه الإرهاق والضياع. أدار المفتاح فاهتزت الحافلة، ثم بدأت تتحرك ببطء شديد حتى توقفت حيث كانت تشير الفتاة.

تنفس الصعداء وشرع يمسح عن جبينه العرق، ونزل من الحافلة قبل الركاب جميعاً وكأنه يخرج من زنزانية، اتجه فوراً إلى حيث يأخذ سائقو الحافلات قسطاً من الراحة تحت ظل شجرة الصفصاف. حثّ الخطى متلفتاً حوالياً كمن يخاف أن يلحق به أحد. عندما وصل كان شاحب اللون. خاطبهم دون أن يلتفت صوب الحافلة الجاثمة على مبعده منهم قائلاً :

- هل نزل الجميع من الحافلة؟

كانوا ينظرون إلى لون وجهه الحائل ونظراته العاكسة لاضطراب داخلي يفشي فزعا غريباً جعل قسماً وجهه شبيهة بمن استيقظ من الإغماء. ثم بدأوا ينظرون صوب الحافلة. أجاب أحدهم :

- ليس بعد. ما بك، تبدو مثل ناج من الغرق.

سألهم دون أن يتحرك من مكانه :

- هل ترون صاحب الكتاب؟

أجاب سائق آخر:

- لم ينزل أحد حتى الآن.

قال بتقرير :

- إذن لا يزال داخل الحافلة.

سأله آخر :

- وما بال صاحب الكتاب، ما بالك أنت؟ وكيف صرت إلى هذه الحالة من الاضطراب؟ ما الذي حدث بالله عليك؟

قال أحد السائقين بعد أن أجال النظر جهة الحافلة:

- تبدو الآن فارغة.

أضاف آخر:

- ولا أحد يحمل كتابا.

أما هو فأكد قائلاً دون أن يلتفت :

- إذن وضَعَه داخل جيب معطفه.

قال آخر معترضا :

- ولكن لا أحد من الركاب يلبس معطفا.

قال بنفس اللهجة :

- غير معقول.. أنظروا جيدا. أنا أعجز عن الالتفات، لون المعطف رمادي.. تحققوا يا رجال، لا بد أنه اختفى بسرعة.

- لا رمادي ولا نارى.. لولا ما نراه من حالك لقلنا إنك

تمزح، حدثنا فقط عما جرى.

- ما جرى؟ أنا نفسي لا أعرف ما جرى.

استدار وتقدم بخطوات واسعة حتى بلغ موقف الحافلة.. دخل ليجمع رماد الكتاب المحروق حتى يضعه أمام السائقين كدليل على صدق كلامه. لكنه فوجئ بنفس الركاب الذين لم يغادر

واحد منهم الحافلة طوال الطريق. صاحب الكتاب والبقية من الرجال والنساء جميعا. لم ينقص واحد. قال متلعثما وقلبه يرتج داخل صدره وقد صار لونه أشد اصفرارا وعقله أقرب إلى وعاء فارغ بسبب الدهول :

- لماذا لم تنزلوا يا رفاق؟ لقد وصلنا إلى المحطة النهائية.

لاحظ السائق أنهم يتبادلون نظرات ذات مغزى يعجز عن تفسيره. وشرعوا بعد ذلك يغمز بعضهم بعضا، ثم بدأوا يجيبون، قال صاحب الغليون :

- وهل هناك حقا محطة نهائية؟

أضاف ذو الصوت الرعدي :

- صحيح.. فكلمة " نهائية " مشتقة من كلمة "نهاية"!

قالت ذات الضفيرة :

- أظن أننا لم نبرح البداية.

رفعت السيدة مجلتها وبدأت تحركها أمام وجهها استجلابا لبعض الطراوة ثم قالت :

- نحتاج إلى سائق يقظ على ما يبدو، ما رأيكم؟

قال صاحب الكتاب تماشيا معها :

- هذا أمر مفروغ منه يا سيدتي. ولا بد أيضا.. نعم لا ريب يا إخوة. يجب أن يكون للسائق الجديد إمام جيد بمنعطفات الطريق. ويكون قويّ الشكيمة حتى لا نتعرض كما حدث

مع هذا البائس لسلسلة من أنصاف الحوادث، فلولا رعاية الله لكان معظمنا قد سبق ربما رجل الموت هذا إلى الآخرة. أليس كذلك؟

قال ذلك مشيراً إلى الراكب الأخير الذي مازال مرمياً على الصفيح بلا حراك، ثم بدأوا يهجمون الواحد تلو الآخر :

- بلى وربي.
- من أين حصلت يا هذا على رخصة السياقة؟
- ربما اشتراها.
- أو زورها!
- أو سرقها!
- لا تظلموا الرجل، قد يكون اجتهد فعلاً حتى استحقها، ولكنه ربما يعاني ضعفاً ما.
- هل يخيفك ظلك أحياناً يا هذا؟
- هل تتتابك حالات خوف تظن أنها مجهولة المصدر؟ أسألك فقط من قبيل منطلق واحد.. أريد أن أفتح إدراكك على أن بإمكانك تدارك هذه الأمور لأنها محض أوهام ليس إلا.
- أتركوه.
- دعوه.
- أعتقد أنه أفرغ ما في جعبته.

- فاقد الشيء لا يعطيه، من السخف مطالبته بفعل ما لا يتقنه. كما أن القول بأننا لم نبرح البداية يعد ظلماً في حق الرجل.. لا، هذا غبن يا إخوة.

- من فضلك يا أنت.. عليك أن تنادي على سائق ذي أهلية.. أما أنت فلا بأس لو فتحت ملفاتك القديمة، وقرأت أوراقها، ورقة، ورقة. لابد أنك ستعثر حتماً على كم هائل من الأخطاء التي حسبت أنها في الصميم.. وأنت تدري أن تراكم ما يمضي دون مراجعة، يظل على عواهنه إلى الأبد.

- لا تنس أنه سيعثر على كلمات وجمل مشطوب عليها، فما حل هذه؟ كيف سيهتدي إلى ما كان يدور بباله قبل التشطيب؟

- هذا صحيح تماماً.

ابتسم الميكانيكي ابتسامة ماكرة وقال :

- ربما يعتقد أن لمس آليات السيارة وتحريكها مثل إدارة المقود والضغط على الفرامل هي أهم ما ينبغي معرفته، وأنها تكفي ليصير سائقاً متمرساً.

طرح صاحب الكتاب هذا السؤال فجأة :

- ألم نخطئ في اختيار الحافلة؟

أجاب صاحب الغليون بثقة :

- لم يحدث أن أخطأنا مرة واحدة قبل الآن.

أصبح السائق الآن مبهوتا، وبالكاد كان يتنفس، شعر بالندم يفترس خلاياه، خلية بعد خلية. لماذا عاد إلى الحافلة؟ العرق جعل ملابسه تلتصق التصاقا بجسمه وكأن أحدا قد دلق عليه دلو من الماء، أو كأنه وقف تحت المطر فترة كافية. ولما استدار للخروج سمع صوت صاحب الكتاب :

- نحن في انتظار سائق كفاء يا أنت...

التفت قبل الخروج وألقى نظرة خامدة على صاحب الكتاب وقال في نفسه وهو يشعر بالانهزام يزحف في أوردته: "هذا الرجل خطير. ومن المحتمل أن يصير أشد خطرا لو كان بحوزته سلاح، بل هو حتى دون سلاح أخطر من الشيطان. بكلمات معجونة بالشراسة والمفارقة جعل معنوياتي ضئيلة وباردة". بعد خروجه وهو ذاهل نادى على السائقين بعد أن خطا ثلاث خطوات.. فأقبلوا جميعا نحوه. قال :

- لم أعد أتحمل كل هذا.. فلتتكفلوا بإنزال هؤلاء.

تفرّسوا في مظهره، التصاق الثياب بلحمه.. شحوب لونه.. جحوظ عينيه.. خطواته التي تشبه المشي وسط الوحل. ثم نظر بعضهم إلى الداخل من خلال الزجاج فتبينوا أن الحافلة فارغة، بينما عمد آخرون للدخول دون تردد، فوقفوا مذهولين. قال أحدهم :

- ولكن الحافلة فارغة.

أضاف آخر:

- لقد غادر الركاب جميعاً، لا أحد هنا.

قال سائق آخر وقد باغته حيرة غامضة :

- لم ينزل أحد من الحافلة أيها الرجال.. ما هذا التهافت؟ لقد كانت الحافلة فارغة عندما توقفت...

تحرك أحد السائقين ليستوضح الأمر عن كثب، وكان حدسا همس لفؤاده أن في المسألة سرّاً.. تقدم خطوات مترددة نحو الخلفية، وعند الباب الخاص بخروج الركاب خلف المقاعد الأمامية وجد جسم رجلٍ متغضن الوجه، رث الملابس، يبدو من هيأته أنه متشرد أو متسول، مرمياً على الصفيح بشكل لا يمكن رؤيته من الأمام، فارتدّ إلى الوراء جاحظ العينين من الفرع، فاندفع الآخرون نحوه وقال أحدهم :

- أهو ميت؟

- علينا جس نبضه.

جذبوه وأفردوه في المساحة المتاحة لمرور الركاب، وانحنى أحدهم فوضع أذنه على صدره ناحية القلب، بينما اشتدت أعصاب الباقيين خلال لحظات الانتظار، ثم بادره واحد بالسؤال فزجره الآخرون. وأشار إليه آخر بالتزام الهدوء بأن وضع سبابته على شفثيه، فساد الصمت.. قال الذي انحنى فجأة وقد جحظت عيناه :

- إنه حي.. ونبضه منتظم.

ردد أكثر من واحد :

- الحمد لله.
- ماذا نفعل الآن؟
- ننقله إلى المستشفى.
- وماذا سنقول؟ أعني أننا لا نعرف ما حدث.
- ولا نعرف عنه شيئاً.
- هل هو مريض؟
- ومن يدري؟

استدرك الذي جس نبضه :

- قد يكون مغمى عليه.. نعم.. فحرارة جسمه عادية، ولكن ماذا حدث بالضبط.

أخذ أحدهم قارورة ماء فرش وجه الرجل الملقى رشّات متتالية، وضربه على خديه بخفة، فاستيقظ. تحرك من مكانه يريد الوقوف فأعانه اثنان، ثم أجلساه على المقعد القريب.. مدّوا نحوه القارورة فشرب جرعات.. ثم أخذ ينظر إليهم بالتتابع وكأنه يبحث عن أحد. فبادره صاحب القارورة سائلاً :

- ماذا حدث يا عم؟
- أين هو؟
- تقصد السائق؟
- أجل.. أين ذهب ذلك المجنون؟
- إنه بالخارج..

هَبَّ من فوره وتحرك خارجاً، وكان قوة دفعته. وتبعوه جميعاً. ولَمَّا وقف أمامه قال بغضب وهياج وعيناه تنفثان شرراً :

- تفو عليك.. سائق معتوه.. لتذهب إلى الشيطان..

ثم تابع وهو ينظر إلى الجميع :

- لقد كان هذا المأفون يتحدث مع نفسه طوال الطريق،  
وأكثر من مرة التفت إلى الوراء يحاور أشباحا حتى كادت  
الحافلة تنقلب أكثر من مرة لولا لطف الله... بل وتوقف  
مرارا لينخرط في نقاشات غريبة مع الفراغ.

ثم شزر السائق بنظرة قاسية وأضاف وهو يهم بالمغادرة :

- ألا لعنة الله عليك.. تفو عليك..

ثم التفت إلى الآخرين وشملهم بنظرة غاضبة ورحل وهو يشتم  
ويبصق. وحينها تجمعوا حول السائق المذهول وبدأوا يسألونه  
:

- ما الذي حدث بالتحديد يا رجل؟

- عمّاذا يتحدث هذا الرجل الغاضب بحق السماء؟

- هل أنت متأكد أنك على ما يرام؟

- ألا تشكو من شيء؟

- من يكون هذا الرجل؟

- هل تعرفه؟

- أجب عن السؤال الأخير باقتضاب قائلاً :

- إنه الراكب الأخير...!

ملأه الفزع فجأة وتمنى في اللحظة نفسها أن يدخل ويجد الداخل  
خاليا حقا.. تقدم.. دخل.. ودخل وراءه الآخرون وتجمعوا

وراءه. وفورا وقع بصره على صاحب الكتاب، وكانوا كلهم هناك عدا الراكب الأخير الذي غادر قبل قليل وهو يشتم السائقين والحافلات. وبينما بدأ الركاب الآخرون يرمقونه بفضول إذا بصاحب الكتاب يباشره بالسؤال وعلى وجهه ابتسامة غامضة :

- مرحى، بورك فيك يا هذا، لقد رجعتَ وفي أثرك دزينة من السائقين.

استدار ونظر إلى الركاب والابتسامة الغربية لم تزايل وجهه، ثم أضاف وهو ينظر في عيني السائق بمكر :

- من تُرشح من هؤلاء أيها السائق لاستئناف رحلتنا المثيرة هذه؟

ووسط ذهول السائقين نزل هو من الحافلة صارخا مهرولا دون وجهة، كان صراخه أقرب شبها بالعواء، أو بنباح كلب تعرض للضرب المفاجئ.. ثم ما لبث أن شرع يمزق قميصه، بينما ينظر إليه السائقون بعيون جاحظة، وعقول ذاهلة، وأفواه نصف مفتوحة، ثم ما لبثت الأسئلة الكثيرة تطرق أذهانهم، بينما دار الحوار من جديد داخل الحافلة حين نطق ذو الندبة وهو يُصفق :

- لقد اشتعل الموقد تحته الآن، أترون؟

قال صاحب الغليون وهو يحشر غليونه بالتبغ :

- إما أن ينضج أو يحترق.

استطرد السكران وهو يضحك باستهتار :

- سيتكفل وحده بتمرير نفسه في التراب لو احترق. سيسحق نفسه بنفسه.

صبّ جرعة كبيرة في جوفه وتجشأ ثم تابع وفي زاوية فمه ابتسامة غامضة :

- لكن لنتابع ما سيُسفر عنه هذا النزال الناشب بين كل المتناقضات في وجدان هذا الشاب.

قالت ذات الضفيرة :

- لقد خطا الخطوة الصعبة، لكنه لم يتجاوز الخطر بعد.

أضافت المرأة الجميلة وقد فردت المجلة على ركبتيها :

- لو أنه تحصل كفايته من المعرفة.. إذن لتقلّصت مرحلة ولادته الثانية إلى أدناها.

قال صاحب الكتاب ليتمم الفكرة:

- المعرفة نصف القوة، والبصيرة نصفها الخفي. فهما بمثابة السمع والبصر. فلو تضافرا معاً لدى أي سائق، لكانت الخطوات التالية كاجتياز جسر، أما هذا السائق فيبدو وكأنه يتأرجح فوق خيط رفيع.

تناول السكران جرعة واحدة وقال :

- إذن فالمسألة حرجة.

مدّت السيدة المُسنّة أصابعها ولمست أنفها المكسور بليونة ثم  
قالت :

- قُضِيَ الأمر.

أضافت ذات الضفيرة :

- علينا انتظار ردود أفعاله التالية.

قل السكران بعد أن تناول جرعتين إضافيتين :

- لقد بلغ ذروة الحيرة المقدسة.

أضافت صاحبة المجلة وهي تلاحظ خطوات السائق :

- إذن عليه ألا يفرط في الحركة.

أكد صاحب الكتاب مُصحّحاً :

- بل عليه أن يكفّ تماماً عن الحركة حتى يسترد توازنه.

أنظروا! إنه يشبه من يمشي بخطوات متهورة فوق حبل  
متمايل.

قالت الفاتنة التي أعانت السكران :

- لم يكن متوازنا حتى يسترد توازنه. يجب أن يتعلم التوازن  
وفق الحالة الراهنة، وإلا تهاوى.

وضع صاحب العمامة يده على صدره وقال بضراعة :

- يا لطيف.. إنها الكارثة إذن!

عاد صاحب الكتاب يطرح نفس السؤال:

- أحقا لم نخطئ في رقم الحافلة؟

ردّ عليه صاحب الغليون بسؤال آخر :

- لماذا تكرر السؤال مع أننا متأكدون من خياراتنا السابقة؟

أجاب مكانه صاحب السيجارة فوراً بأن قال :

- ربما لأنه لاحظ أن هذا السائق ليس أهلاً حتى للخطوة الأولى.

قالت ذات الملابس المخرّمة :

- إذن فقد أخطأنا في اختيار السائق، لا في رقم الحافلة.

قال صاحب الكتاب بتقرير :

- على أي حال فالأمر هو التالي.. إما أن يعود ويصير شيئاً آخر أكثر من مجرد سائق.. أو يرجع وهو خرقة تدفعها أي ريح تهب في أيما اتجاه.

وطرح ذو الصوت الرعدي هذا السؤال :

- أنثركه لهبوب الرياح إذن.. أم ننتقل للمرحلة التالية؟

جمع صاحب الغليون مذكرته ونفث طبقة دخان كثيفة ثم قال :

- فلندعه يقطع المسافة الأولية في هذا العالم الذي يسمونه جنونا، ثم نقلب الانطباعات من شتى الوجوه، وبعدها نقرر.

عاد ذو الصوت الرعدي يسأل وهو يحرك يده جنب صدغه :

- لماذا يخاف الناس من هذه الحالة إلى هذا الحد وبهذا الشكل الذي يبدو فجاً ولا لزوم له؟

أجابت ذات الضفيرة وهي تداعب خصلات الشعر فوق جبينها :

- لأنهم يشاهدون بشكل يومي حالات الذين فشلوا في أهم امتحان وجداني.

تساءل صاحب السجارة قائلاً :

- ألهذا الحد؟

أجاب صاحب الكتاب :

- الحق أنه من الأفضل للإنسان أن يُجنّ أو يموت على أن تمر لحظات حياته في التآرجح بين وجه الشيء وقفاه دون أن يفقه شيئاً. اللعبة تكون مثيرة حين يتجرأ الإنسان على جرجرة ظلامه حيث يسطع نوره.

قال ذلك ثم نظر صوب السائق الذي لا يزال يركض باضطراب ظاهر وهو يصرخ كمن اندلعت النار في ثيابه، وينظر إلى الوراء بين حين وحين مثل الهارب من وحش على وشك الانقراض عليه. قال متسائلاً وقد أزال النظارات عن عينيه :

- متى يدرك السائقون أن الهروب من الألم أو تفاديه، هو مثل محاولة تفادي البلل وسط الماء في عرض البحر؟ إن كل الكبار، وكل العظماء، إنما تخرجوا من مدرسة العناء،

حيث الدروس هي المآزق.. والحكم هي العوائق.. وكمال الأمر ومتممه يجتاز مسلكه عبر المسار كله بين الوعورة والخطورة من جهة، واليسر والسهولة من جهة أخرى. وكلنا نعرف أن الثقوب الموجودة في عود القصب لم يكن ليصير مزمراً بدونها، ولذلك تتميز القطعة المطعونة منه على بقية العود كله. الناس الخائفون من الألم يكرهون الحقيقة، ويظنون مع ذلك أنهم مستعدون للموت من أجل الحرية. فهم في كل الأحوال لا يفهمون ماذا تعني الحرية، ولا يفقهون مغزى الحقيقة، ويسقطون أثناء هروبهم في مصيدة الألم.

أخرج الكتاب من جيب معطفه وأضاف وهو يبحث عن الصفحة الخامسة والثلاثين :

- طبعاً لا بد أن يعرف الإنسان أن منحدرات الانجراف والسقوط موجودة في أي قمة، كما لا بد أن يعرف أن في كل قاع مسالك للصعود والارتقاء. ولا مناص من العودة لمرحلة الطفولة ليتمكن من تفعيل هذا الأمر.

وبينما أبصار الآخرين تتابع حركات السائق الهارب، من غير أن يفقدوا دقة الإنصات والانتباه إلى صاحب الكتاب. قال هذا الأخير متابعاً :

-السيطرة على الأزل، تبدأ من التركيز على لحظة واحدة، بقوة ودون خوف. عندها يستوي أن تصرخ أو تهمس قائلاً: "الوقت كله هو الآن وهنا يختصر كل المكان".

قال السكران وكأنه يستفيق فجأة من السهو :

- لكن مهمتنا غايتها ليست أن يُصابَ السائقون بالجنون، لأنّ المجنون في نهاية المطاف مجرد بقايا لم يعد الشيطان يريدّها ولا تستثير انتباهه فيرميها في سلة المهملات، لأنه يشبه الإنسان الذي انجرف نحو مهاوي الرذيلة والجريمة، والشيطان ليس لديه وقت يبذره في جعل القاذورات أكثر قذارة. إن وقته مهم ولذلك يستثمره في بذل المحاولات المستمرة لجعل حياة الإنسان المستقيم مضطربة.

أجاب صاحب الكتاب بتقرير:

- مهما يكن.. نحن نعرف جميعاً أن بعض النفايات أكثر فائدة من أغراض كثيرة تظل الحياة مكتظة بها من غير طائل. والوردة النابتة وسط الأوحال تبقى وردة.

خارج الحافلة تبادل السائقون هذا الحوار:

- ماذا يحصل؟ أكاد أُجن يا رجال.
- أما أنا فعقلي قد توقف تماماً.
- أتظنون أن بوسعنا مساعدته؟
- لماذا كان يحدق نحو المقاعد الخلفية؟ هل جُنَّ الرجل؟
- هناك لغز.
- كان علينا ألا نترك الراكب الأخير يغادر.

كان أحد السائقين يواصل النظر إليه وهو يركض ويصرخ دون أن يلتفت إلى شيء آخر، وها هو يصيح مشيراً بسبابته :

- أنظروا.. أنظروا. ها هو يستوي وينظر نحونا.
- نعم، لقد توقف عن الصراخ أيضا.
- إنه يعود.
- ها هو يركض من جديد.
- لكنه يركض صوبنا.
- هذا صحيح.

توقف عندما اقترب منهم، حاموا حوله حتى صاروا على شكل دائرة، كما لو أنهم تآمروا حدسا على شدة والقبض عليه لإيوائه إلى مصح نفسي أو عرضه على مختص في الاعتلالات العقلية. لكنهم لم يفعلوا أكثر من ذلك. طوقوه فقط دون أن يُبدوا أي حركة زائدة حتى لا يشعر بالعداء فيهم عليهم. قال وأنفاسه لاهثة بينما نظراته تنتقل بينهم فردا فردا سائلا :

- أين هو؟
  - من تقصد، الراكب الأخير؟
  - في الحقيقة لم يكن ذلك الرجل الراكب الأخير.
  - من يكون إذن؟
  - لقد كان الراكب الوحيد طوال الرحلة...!
- تبادلوا النظر تواطؤاً فتوجّس، إنما لم تصدر عنه حركة غريبة، بل بقي على حاله.. قال مواصلا بهدوء :
- انتظروا.

وانساب بين أيديهم مثل أفعى وتحرك بسرعة صوب الحافلة،  
ساروا ورائه وكأنهم طلبة خلف أستاذ يواصل معهم تجربة  
مثيرة ليطلعهم على كشف جديد. دخل.. نظر في كل الزوايا،  
وكان يبدو عاديا رابط الجأش، ثم التفت نحوهم وقال :

- لا كتاب هنا عند عجلة القيادة.. لقد فهمت. نعم، لهذا  
عدت.. لا كتاب ولا رماد. ثم إني كنت أسمع بوضوح كل  
الكلام حتى وأنا بعيد عن الحافلة على مسافة يستحيل معها  
سماع حوار دائر داخلها.. لهذا عدت، نعم لهذا عدت.  
- إذن؟

- إذن لا شيء.

- وماذا أيضا؟ أعني ما رأيناه، أنظر إلى نفسك، لقد مزقت  
قميصك يا رجل.

- وأنا بينكم الآن.

- لماذا مزقت قميصك إذن؟

- ولماذا هرولت وصرخت؟

فتح ذراعيه كمن يرحب بصديق وقال:

- ها.. هذا هو السر، ولكن لا أسرار بيننا، لقد كنت  
أمازحكم.

- مزاح؟

- مزاح سمج وغريب حقا!

قال آخر وهو يحرك سبابته يمنا ويسرة دلالة الشك وعدم  
التصديق :

- ليس مزاحا ما بدر منك. وأستطيع المراهنة على ذلك.

ابتسم السائق وطرح عليه هذا السؤال :

- وماذا يكون إذن؟

قال أحد السائقين وقد نفذ صبره :

- أنا في الحقيقة لا أخفي استغرابي. لقد بدا أنك فقدت صوابك. وها أنت تقول إنك تمزح.

أجاب وقد غمره صفاء داخلي :

- تقول صواب! وما هو الصواب؟ كلنا نتفق على أن معنى أي شيء يختلف من شخص لآخر. الصواب بالنسبة لك ليس هو الصواب بالنسبة لأي إنسان آخر على وجه الأرض. انتبهوا! إذ ربما لو أعاد المرء النظر في معتقداته وقناعاته التي هي صواب بالنسبة له، لكان من المرجح أنه سيعثر على الكثير مما لا يستحق إلا أن يُرمى في سلة المهملات. ثم.. هل من المستحيل أن يعود المرء إلى رُشده؟ وأيضاً، وهذا شيء في غاية الأهمية، ألا يفعل الكثير من البشر سرا وعلانية بعض الأمور التي تنافي الأخلاق والقوانين والأعراف ويكون المجتمع عالما بذلك، ويظل مع ذلك مستمرا في كونه عاقلا؟ أم يكفي أن يمزق الواحد قميصه لننعتة بالجنون؟

حك ذقنه بظهر يده وهو ينظر إليهم، واندفعت من حلقه نوبة سُعال ثم استأنف :

- الرأي أيها الإخوة أن المرء حين يكتسح الوهم مساحة كبيرة من وجوده دون أن يفطن، يبدأ في الاعتقاد بأنه يفهم أكثر مما يفهم الآخرون وأن بصيرة نفاذة تملأ ذهنه وتُمكنه من معرفة المستقبل.. إنه بكل بساطة وإيجاز يُخرّب الشيء الأكثر أهمية في هذا الوجود، وهو المنطق. ليس الوقت ولا المكان مناسبين لهذا الكلام. ولكن عليكم أن تدركوا جيدا أن حتى الكبار معرضون للضعف والهشاشة والانكسار. ليس مُهما أن تتجح أو تصير قويا أو تبلغ مرتفعا لم تصل إليه قدم إنسان، لا.. الأهم هو أن تفوز بالسكينة.. ذاك هو النجاح الحقيقي.

قال أحدهم بتأفف :

- أكاد لا أفقه شيئا، ما علاقة هذا بذاك؟ نحن نريد أن نفهم ما حدث.. وكفى!

رماهم بنظرات مختلفة هذه المرة ثم قال وهو يمسح بالسبابة والإبهام على شاربه :

- لا عليكم، سأقول لكم ما الذي حدث، اسمعوا... لقد كان هنالك ضجيج وصخب. نعم، الكثير من الصخب. أنتم تدركون بلا شك ما أعنيه. هذا مختصر ما هنالك.

حرك أحدهم يده في حيرة وهو يقول :

- لا معنى محددًا لما قلت.

قال وهو يغالب نفاذ صبره :

- اسمع.. أريد منك أن تحدثني عن تفاصيل ولادتك معتمداً على ما تتذكره بحواسك وليس انطلاقاً مما حكته أمك أو جدتك.

- تعرف أن هذا مستحيل.

- وكذلك ما تريد أن أحدثك عنه. لقد كان خيطاً رفيعاً حقاً، ولقد صنعتُ منه جسراً يسع عشرات السائقين..

قال هذه الكلمات ودخل إلى الحافلة وأغلق الباب دونهم، جلس في مقعد القيادة بشموخ وقد اختفى الشحوب من قسماط وجهه ثم أدار المفتاح واهتزت الحافلة، أطلّ عليهم وعيونهم معلقةً به في ذهول واستدرك قائلاً :

- من العبث البحث عن الظل الوارف تحت شجرة جرداء. وحسب تجربتي لا أحد يعود لارتداء ثيابه القديمة التي صارت أصغر من قياسه على الإطلاق.

ضغط على دواسة البنزين وانبعث صوت الحافلة من جديد، وانطلق.

في الخلفية ما يزال الركاب هناك عدا الراكب الأخير الذي غادر الحافلة، ولأول مرة ينطق الرجل الذي بقي صامتا طوال الرحلة، الرجل الذي أنقذ الراكب الأخير، قال وهو يبادل السائق النظر عبر المرآة :

- لن يكون الطعام لذيذاً بلا ملح وبدون توابل حارة، إذ بدونها ستكتفي بعد لقمتين أو ثلاث حتى لو كنت جائعاً. وكل رحلة تخلو من بعض المغامرة هي مثل استغراقك

في النوم أثناء السفر، إنها مرحلة حافلة بالمشاهد الطازجة، غير أنها فترة ملغية من وجودك نتيجة الرقاد. أنت تعرف هذا بلا شك أيها السائق.

أعاد السائق نظراته إلى الطريق بهدوء.. كان يدرك بصفاء أن كل هذا العالم الزاخر داخل الحافلة.. والمائل وراءه، لن يكون بوسع السائقين رؤيته أو فهمه أو التسليم بوجوده إلا في حالة واحدة، وهي أن يكونوا قد عاشوه أيضاً على نحو ما. كفت جسمه عن فرز العرق، كانت نظراته خالية من أيما نذير بوجود اضطراب داخلي. حرك كتفيه بخفة وأحس بأن الثقل الذي كان يضغط على كاهله قد اختفى. وبدأ انشراح عميق ينتشر في أعماقه، وهذا الشعور يشبه فرح الأطفال وهم يواصلون لعبة جماعية مبهجة، فلا يشعرون بالتعب، ولا يهتمون بانصرام الوقت، ولا تخطر أي هموم على بال أحدهم مطلقاً، ولا يلتفتون لمقدار الأوحال والغبار العالق بملابسهم أو وجوههم أو أيديهم أو أرجلهم، إنهم حاضرون في اللحظة ولا يغادرونها، كما أنهم مغموسون في حالة غبطة عميقة لا يمكن أن تشبهها أية مشاعر أخرى.

الرجل الذي كان يُصدر هسيساً شرع يأكل الحلوى بليوننة وهدوء. أما السيدة الجميلة فقد طوت الصفحة الأخيرة من مجلتها وأخذت تنظر خارج الحافلة. دسّ الشاب يده في جيب سترته وأخرج ولاعة، أشعل أخيراً سيجارته فيما بدأ الهدوء يعم الحافلة، ودخان السيجارة يتحول إلى ضباب جعل الموجودين في الحافلة يتحولون شيئاً فشيئاً إلى أشكال عائمة،

كان السائق يرسل نحو كل ما يحدث نظرات هادئة وخالية من الاهتمام. إنه يشبه من كانت النار مشتعلةً يتعالى لهيبتها ودخانها حول بيته، ونجح أخيراً في إطفائها قبل الكارثة.

طوى صاحب الكتاب الصفحة الخامسة والثلاثين وأغلق الكتاب ثم أجال نظراته في الركاب واحداً واحداً ثم قال وهو يعبت بشاربه :

- غدا بإذن الفتاح العليم ننتقل إلى الصفحة السادسة و الثلاثين.

قال ذو الصوت الرّعدي :

- علينا أن نتحرك إذن.

قال الشاب صاحب السيجارة وهو يأخذ آخر نفسٍ من سيجارته :

- علينا إعداد خطة جيدة هذه الليلة.

قال صاحب الكتاب وهو يدسُّ كتابه في جيب معطفه :

- يبدو أنه لم يعد لوجودنا أي ضرورة هنا، سنقوم بزيارته بالتناوب لمجرد التأكد والاطمئنان.

رمى الشاب سيجارته ودعكها ثم قال بثقة :

- أعتقد أنه ليس من داع. هل سجلنا عودة بهذه السرعة؟

قالت العجوز :

- إنها عودة قياسية بلا شك.

رفع صاحب الغليون حاجبيه ومجّ نفساً عميقاً ثم نفث سحابةً من الدخان إلى الأعلى. قال وهو يدعك ذقنه :

- من الواضح أنه حتى لو خرج عن طوره فلن يفقد السيطرة. إنه سيد نفسه بعد الآن.

دلق السكران آخر جرعة من المشروب بتلذذ ظاهر ثم تلمظ، لعق شفثيه كمن تناول وجبة لذيذة، وحين انتهى من جمع القوارير الفارغة قال والبهجة تكاد ترقص على مُحيّاه :

- لم يكن المشروب لذيذاً إلى هذه الدرجة في أيّ من الرحلات الماضية مثلما هو في هذه الرحلة.

فكّت الفتاة ضفيرتها ثم دفعت بشعرها إلى الوراء فانساب مموجاً على ظهرها مثل شلال أسود ثم قالت وهي تُقوم بتعديل هندامها :

- لنغادر..

قالت الفاتنة التي أعانت السكران وهي تتلمل :

- في انتظارنا رحلات كثيرة على كل حال..

أضافت صاحبة المجلة وهي تضع مجلتها داخل حقيبتها :

- هذه رحلة قصيرة جداً.. لكنها للصدق ودون مبالغة، أعترف أنها مميزة بالمقارنة مع بعض الرحلات الطويلة المملّة.



انتهت